دراساتٌ أدبيّة:

اتجاهات قصيدة الخَوف الأندلسيّة وصايا ابن خاتمة* وحِكَمُهُ نموذجًا

Andalus al-Khawf Poem Trends: Ibn Khātimah Injunctions and his Poetry Wisdom as a Case Study

Aliran Puisi Bertemakan Perasaan Takut di Andalus: Kajian Terhadap Kumpulan Wasiat dan Kata-kata Hikmah Berpuitis Ibn Khātimah

محمد ماجد الدّخيل**

ملخص البحث:

يُجلي هذا البحث اهتمام ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي بتربية النفس البشرية والسمو بها، وغرس القيم السلوكية الحميدة فيها، خصوصاً، أن الشعر الأندلسي أتاح المجال واسعاً لاستيعاب قيم إنسانية نبيلة من شتى جوانب الحياة الأندلسية، ومن تلك الجوانب العلاقة بالآخر التي نبعت من اتجاهات قصيدة الخوف الأندلسية، مُتمثلة في وصايا ابن خاتمة وحِكمه الشعرية، على نحو يستجلي علاقات تقابلية ثنائية جدلية، التي تشعبت لتشمل علاقة: الأعلى أو الأدنى، والإساءةأو الإحسان، والكلام أوالصمت، والغربة أو الإقامة؛

** أستاذ مساعد بجامعة البلقاء التطبيقية، الأردن، محافظة إربد، كلية إربد الجامعية، قسم العلوم الأساسية، شعبة اللغة العربية التطبيقية.

لتظهر النفس البشرية أمام الآخر بصورة سوية. لعلني أستطيع من خلال هذا السعي وكنتيجة له أن أقدّم أهم القيم السلوكية الحميدة الكامنة في العلاقات الثنائية التقابلية الجدلية التي وجّهت ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي من جهة، وحِرصَه الشديد على بثّها وترسيخها في نفوس أبناء عصره من جهة أخرى بوساطة سلطة القارئ على النص.

الكلمات المفتاحية: الخوف- العلاقة بالآخر- وصايا الحِكَم- قيم سلوكية- تقابل.

Abstract:
This study will polish Ibn. Khātimah Al–Anṣāriy concern on Human psychology Education; and how to erect good behavior value in it, for the reason that Andalus poems gave a wide chance to accommodate human behavior value in different Andalus social life. Among this sides is the relationship with others which flow out from Andalus Al-Khawf poem trends, such as Ibn. Khātimah injunctions and poetry wisdom. It draws out from its dual opposite relationships the following relationship that comprise highest and lowest, good and misdeed, speaking and silence, migration and residence, to exhibit human minds in front of other with a straight illustration. I will present in this work the most important good human behavior value that exist in dual opposite controversial relationship that guide Ibn. Khātimah in a side, and his strong desire to disseminate and plant it in mind of the people of his time in other side, towards power of reader on the text.

Keywords: Fear- Relationship with Other- Conjunctions of Wisdom- Behavior Value- Opposite.

Abstrak
Kajian ini memaparkan kecenderungan Ibn Khātimah Al–Anṣāriy Al-Andalusiy dalam menjadikan tema pendidikan jiwa serta nilai-nilai perilaku yang terpuji dalam hasil karangannya. Puisi di zaman Andalus adalah satu wadah yang luas yang mampu mencerap nilai-nilai kemanusiaan yang terpancar dari pelbagai aspek kehidupan Andalusia. Di antaranya ialah aspek hubungan dengan pihak lain yang timbul daripada hala tuju yang menggariskan aliran puisi yang bertemakan perasaan takut di Andalus seperti yang di dapati dalam kumpulan wasiat Ibn Khatimah dan juga kata hikmah berpuitis beliau. Hubungan kontra dua hala yang turut merangkumi hubungan di antara pihak atasan dan bawahan, kebaikan dan kekejaman, luahan dan berdiam diri, duduk dan berkelana; menjadikan jiwa manusia terlukis dengan satu bentuk yang sama di mata pihak yang lain. Melalui kupasan ini, nilai perilaku terpenting yang tersirat dalam bentuk hubungan kontras dua hala tersebut yang mencorakkan hasil kerja Ibn Khatimah yang amat komited untuk melihatnya tersebar dan tertanam di kalangan pembacanya dengan autoriti mereka; akan diketengahkan.

Kata kunci: Takut– Hubungan dengan yang Lain– Wasiat dan Kata Hikmah– Nilai-Nilai Perilaku– Kontras.

مقدمة:

أ– الخَوف وبعض المفاهيم والمصطلحات المتعلّقة به وآفاقه:

كلمة "الخَوف" –في لغتنا العربيّة الجميلة– من الفعل الثلاثي المجرد "خَافَ"، ومنها: خَافَهُ وَيَخَافُهُ، ونقولُ: خَوْفاً وخِيفَةً وَمَخافَةً: يلزمُ ويتعدّى إلى واحدٍ وإلى اثنينِ بنفسه....،[١] على نَحْوِ قول الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴾،[٢] ويتضمّن معنى "الظّن" في حقيقته ومجازه، وهو "غَمٌ" يلحق بتوقّع مكروه، وكذا "الهمّ". وفي أنوار التنزيل: "الخَوفُ عِلَّة المتوقع والحُزنُ عِلَّة التوقّع".[٣] والخَوفُ يعني "القَتل"، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ ﴾،[٤] ويأتي الخَوفُ بمعنى التوقّع والعِلم، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا ﴾،[٥] وَالخِيْفَةُ من الخوف، وفي تخصيصه بالملائكة الكرام، كما في قوله: ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾،[٦] تنبيه على أن الخوف منهم حالة لازمة لا تُفارقهم.[٧]

ففي "لسان العرب" أَنَّ الخوفَ يدور حول معنى الفَزَع، والقتال، والتوقّع،[٨] ويُقابل "الخوف" –كمصطلح– "الأمن"، قال تعالى: ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾،[٩] فالخوف – بهذا المفهوم – يُعيق مفهوم الأمن الشخصي والمجتمعي والأُممي.

وإذا أُطلق لفظ "الخوف" فإن المعنى المراد هو "الفزع"، وعلى هذا المعنى أغلب آيات القرآن الكريم، قال الله سبحانه وتعالى – واصفاً الحالة النفسية والانفعالية لسيدنا موسى– عليه الصلاة والسلام– حينما قَتَلَ رجلاً من الأقباط في مصر: ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾،[١٠] ولما عَرفَ بتآمر الملأ عليه أوضح الله تعالى حالة الفزع التي أصابته، كما في قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾،[١١] وَلَمّا قُضِيَ الأجل وآنس بجانب الطّور، وسمع النّداء الرّباني العِلوي شَعَرَ بالخوف والفزع، فقال الله تعالى –واصفاً أحواله: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾،[١٢] ولما أراد الذّهاب إلى فرعون، قال الله تعالى – واصفاً خوفه وفزعه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا

﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾،[13] ولما طلب مصاحبة أخيه هارون – عليه الصلاة والسلام– قال تعالى في ذلك: ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾،[14] ولما ألقى عصاه فإذا هي حية تسعى– في قصة سيدنا موسى –عليه الصلاة والسلام مع السحرة– قال الله تعالى: ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴾.[15]

وَلما أمره الله تعالى بالذّهاب مع أخيه هارون – عليه الصلاة والسلام– إلى فرعون– قال تعالى –في ذلك: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾،[16] ولما أَلقى السحرة حِبالهم، قال تعالى في ذلك: ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾.[17]

ومن الواضح أن مفهوم الخوف والخشية والفزع بينها صلات قوية، وروابط متينة، وتجتمع في صفة من صفات الملائكة والأنبياء الكرام والأتقياء المخلصين والعلماء الصالحين؛ وبالتالي النّاس أجمعين، فالخشية والخوف من الله تعالى وتقواه وطاعته وتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه قيم إنسانية إسلامية نبيلة اتّصف بها عباد الرحمن جميعاً.

وذُكرتْ لفظة "الفزع" بمعنى الخوف في مشهدٍ تصويري مُريب لأهوال يوم القيامة في القرآن الكريم –كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾،[18] وعلى صعيد آخر، وردت لفظة "الخوف" بمعنى الفَزَع في الأحاديث النبويّة الشريفة، ما روى عن الرّسول صلى الله عليه وسلم قوله: {الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان، فإذا حلم أحدكم حلماً يخافه فليبصق عن يساره ويتعوّذ بالله من شرّها فإنها لا تضرّه}،[19] حلماً يخافه أي يُفزعه.

واستخدم عروة بن الورد (ت٣٠ ق.هـ) لفظة "الفزع" في معرض فخره بغاراته التي شنّها على أعدائه ليلاً، فقال:[20]

سَـنَفْزَعُ بَعْـدَ اليـأسِ مَـن لا يَخافنـا كَواسـعٍ في أُخـرَى السّـوامِ المنفّـرِ

وذُكرت لفظتا الخوف والخشية في الأحاديث النبوّية الشريفة، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: قوله: {إذا اقشعرَّ جلد العبد من مخافة الله عزّ وجلّ تحاتت عنه ذنوبه، كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها}،[21] وفي موضع ثانٍ قال: {لَنْ يَغْضَبَ اللهُ عَلَى مَن كَانَ

فيهِ مخافة}،[٢٢] وفي موضع ثالث قال: {عينان لا تمسهما النّارُ، عَينٌ بكت من خشيةِ الله، وعينٌ باتت تحرس في سبيل الله}.[٢٣]

وقد وردت لفظة "الخشية" ومشتقاتها في القرآن الكريم ثمان وأربعين مرة،[٢٤] والخشية أخصّ من الخوف،[٢٥] وأبلغ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾،[٢٦] فالخشية للعلماء من ربهم، والخشية خوفٌ مقترنٌ بالعلم، وبمقدار هذا العلم تقلّ أو تزيد هذه الخشية.

إنّ ما يميّز "الخشية" عن "الخوف"، هو أن الخشية لا تجب إلاّ لله سبحانه وتعالى؛ لأَنَّ التعظيم أو التقديس أو الإجلال... إلخ، لا يكون إلاّ لله وحده لا شريك له، والمهابة لا تليق إلاّ لله سبحانه وتعالى، فالخوف من غيره لا يتضمن التعظيم أو التقديس أو الإجلال؛ لذا تكررت في القرآن الكريم لفظة "الخشية"، كما في قوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾،[٢٧] وفي موضع آخر، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا﴾،[٢٨] بينما الخوف لعموم النّاس، ويدخل فيه الخوف من الله سبحانه وتعالى، والخوف ممن سواه، قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾.[٢٩]

ومن ناحية أخرى، وردت لفظة "الخوف" ومشتقاتها في القرآن الكريم مائة وأربع وعشرين مرة، خمس وتسعون منها كانت في الخوف من الله سبحانه وتعالى، ويُضم في ذلك الخوف من عقابه وعذابه والخوف من البعث والنشور والحساب.[٣٠] وكما أسلفتُ- فإن الخوف يعني الفزع، غير أن الفزع من الله سبحانه وتعالى يختلف عن الفزع من سواه، وأكّد الإمام ابن القيّم الجوزيّة (ت ٧٥١هـ) -هذه الحقيقة- بقوله: "كُل أحدٍ إذا خفته هربت منه إلاّ الله عزَّ وجلَّ، فإنك إذا خفته هربتَ إليه، فالخائف هاربٌ من ربِّه إلى ربِّهِ"،[٣١] وبدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾،[٣٢] وفي قول رسولنا صلى الله عليه وسلم: {شرّ ما في الرّجل، شحٌ هالع وجبنٌ خالع}.[٣٣]

ب- *الخوف من منظور الفكر الإسلامي ووجهته*:

وفيما نظر الواسطي (ت٣٠٦هـ) للخوف نظرة ثنائية، فهو "حِجابٌ بين الله وبين العبد"[٣٤] أورد القاضي الجرجاني (ت٣٩٢هـ) تعريفاً للخوف -من منظور الفكر الإسلامي- قائلاً:

"الخوف هو توقّع مكروه أو فوات في الاستقبال"،[٣٥] ورآه الإمام الغزالي (٥٠٥هـ) في "تألم القلب واحتراقه بسبب توقّع مكروه في الاستقبال"،[٣٦] وهو يساوي القلق والأرق النفسي والعاطفي والفكري، فتألم القلب واحتراقه عَرَضْ، بينما توقع وقوع المكروه في الاستقبال سبب،. وقد ركّز ابن القيم الجوزية على المفهوم، وانصبّ اهتمامه الزائد على الخوف وسلوك الانفعال النفسي من المنظور الديني الإسلامي، فتحدّث عن الخوف من الله سبحانه وتعالى، وقال عن الخوف هو "اضطرابُ القلب وحركته من تذكّر المخوف"،[٣٧] وقد اتفق مع الإمام الغزالي –رحمه الله– في التعريف من ناحية العَرَضْ والسبب.

وفي مفهوم المكي محمد علي، قال الخوف هو: "اسمٌ جامعٌ لحقيقة الإيمان، وهو عِلمُ الوجود والإتّقان، وهو سبب اجتناب كل نهي ومفتاح كل أمر"،[٣٨] فهو يوضح الخوف من الله تعالى وعقابه، كما أنّه اهتم بهذا النوع من الخوف وعدّهُ سببَ اجتناب الآثام وفعل الطّاعات.

والخوف –كذلك الأمر– هو "سوطُ الله يسوقُ به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل"، وتكمن آثاره الإيجابية في "قمع الشّهوات واستكانة القلب وتأدّب الجوارح ومُفارقة الكِبر والحقد والحسد". وصُنِّفَ الخوف إلى خوف إفراط وخوف اعتدال وخوف قصور، فالخوف الأول "مذموم" يقود إلى اليأس والقنوط ويمنع من العمل، وقد يخرج إلى الوله والموت، والخوف الثّاني "محمود" يُفضي إلى المقصود المراد منه يؤدي إلى الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والفكر والذِّكر والتعبّد وسائر الأسباب التي توصّل إلى الله سبحانه وتعالى، والخوف الثالث "القاصر"، وهو ضعيفُ النفع قليل الجدوى، وهو أشبه بالقضيب الضعيف الذي يضرب به دابة قوية فلا يؤلمها ألماً مُبرحاً، فلا يسوقها إلى المقصد ولا يصلح لرياضتها، وهذا هو الغالب على النّاس كلهم إلاّ العَارِفون والعلماء".[٣٩]

ونخلص إلى القول، بأن الخوف هو "حالة انفعالية في الإنسان تُثيرها مواقف معينة، يسلك فيها الفرد سلوكاً يقيه الخطر، ويُرافقها تغيّرات فسيولوجية. فعندما نقول: إنّ الخوف حالة انفعالية غريزيّة تشترك فيها جميع المخلوقات، ولكنهم يختلفون في درجة استجابتهم لمثيرات الخوف تبعاً لأعمارهم وخبراتهم وثقافاتهم وأوساطهم البيئية".[٤٠]

وبعبارات أخرى، إنَّ الخوف هاجسٌ إنسانيٌ فطريٌ شاملٌ بِقي مُلازماً للإنسان –خليفة الله على الأرض– فهو طبعٌ مُتَأَصِّلٌ في تكوّين الإنسان وطبيعته البسيطة، وهو من غرائزه التي تعمل على المحافظة على ذاته أمام سطوة الحياة وسلطتها وتبعاتها وتداعياتها من جهة، وهروباً من شريط الآلام الجِسام ومسلسل الخطيئة ومتاهة الآثام وأطوار المصاعب وقسوة المهالك وتراكم المشاكل وفتنتها من جهة أخرى.

إن مفهوم الخشية أو الخوفَ من الذات الإلهية أرقى درجة من درجات الخوف الأخرى، وأعلى مستوى من مستوياتها من جهة،، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾[٤١] ومن جهة، فإنّ الخائفين أصنافٌ في ديننا الإسلامي الحنيف، فمنهم "من يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعيم، أو خوف الميل عن الاستقامة، ومنهم من يغلب عليه خوف سوء الخاتمة"،[٤٢] من جهة أخرى نسبية لا ترقى عن الخوف من الله سبحانه وتعالى أو تُقابله أو تُناظره أو توازيه، ناهيك أن الإنسان نفسه شَكَّلَ خوفاً ورُعباً وفزعاً وهلعاً وروعاً لأخيه الإنسان من خلال ممارسته لسلطة ما وحاكمية معينة في أغلب الأحيان. ولذلك غدا الخوف وبعض المفاهيم والمصطلحات المتصلّة به اتجاهاً يتراءى جليًّا في أنماط الإبداع الأدبي على حدٍّ سواء، لاسيما في شعر الوصايا والحِكم الشعريّة عند العرب.

وأيّاً ما يكون الأمر، فإننا لا نستطيع –في هذا البحث– أن نرصد اتجاهات الخوف وبواعثه ومظاهره... إلخ، في سائر القصيدة الأندلسيّة بعامّة، وإنّما نقف عند نمطٍ معينٍ من أنماط القصيدة الأندلسيّة المبدعة، وهو وصايا ابن خاتمة وحِكَمُهُ الشعريّة من خلال علاقات تقابليّة ثنائية مع الآخر.

والسؤال الذي يختمر في ذهن الدارس هو: هل شكّل الخوف –وما يتعلّق به من مفاهيم ومصطلحات– باتجاهاته أو بواعثه أو مظاهره المتعددة رؤية ابن خاتمة وفكره وشخصيته وثقافته وتجربته الشعرية؛ ممّا دعاه إلى التوجّه للنفس البشرية ونصحها وإرشادها وتصويب سلوكها وتوجيهها صوب القيم الإنسانية السلوكية النبيلة التي نصّ عليها إسلامنا الحنيف؟

اتجاهات الخوف وفجيعة الدّاخل (البواعث والمظاهر):

جاءت وصايا ابن خاتمة وحكمه الشعريّة في مقطّعات شعرية بسيطة تتألف من بيت أو بيتين أو لا تزيد عن خمسة أبيات في ديوانه، إذْ ليست الجودة الفنيّة في الإبداع الشعري وخطابه الدّال مُقترنة بطول القصيدة أو بعدد أبياتها، وفي ذلك يقول أحد النُّقاد: "إنّ الشاعرَ إذا أتى بالمعنى الذي يُريده في بيت واحد، كان في ذلك أشعر منه إذا أتى بالمعنى في بيتين، وكذلك إذا أتى شاعران بذلك، فالذي يجمع المعنيين في بيتٍ أشعر من الذي يجمعهما في بيتين".[٤٣]

إنّ الإحساس بالخوف من المشاعر والأحاسيس والعواطف الداخلية أي من هزيمة دواخل النفس البشرية عندما تتعرض لمؤثرات قوية وانفعالات شديدة من جهة، وإن سلسلة المؤثرات وتراكم الانفعالات وشدّة الضغوط تجعل الخوف ينعكس على مظاهر النفس البشرية وملامحها الخارجية كالصوت المدوي وصداه في فضاء فارغ واسع من جهة أُخرى.

وقد تنوّع الإحساس بالخوف -بعامّة- باختلاف الظروف والملابسات التي يمر بها الإنسان، واختلفت من شاعرٍ لآخر باختلاف اتجاهات الخوف وبواعثه ومظاهره ودواعيه وأسبابه ودوافعه ودرجاته ومستوياته وأُفقه وفجائعه وندوبه التي تطفو على سطح خريطة النّصّ الشعري التعليمي.

وفي وصايا ابن خاتمة وحِكمه الشعريّة ما يُلفت النظر لملاحقة اتجاهات فضيلة الخوف أو الخشية أو التخويف أو الرّجاء... إلخ، التي احتكمت -برأي الدارس- إلى علاقات تقابليّة مع الآخر، وهذه العلاقات اتّسعت وتشعّبت لتشمل العلاقات الآتية:

أولاً- الأعلى/ الأدنى:

ابن خاتمة هو شاعرٌ أندلسي من مدينة "مَرِيَّة" التابعة لأعمال دولة "غِرناطة"، وهو فقيه وزاهدٌ في حياته -كما أجمعت عليه أغلب أُمهات مصادرنا ومصنّفاتنا القديمة-[٤٤] وتحمل وصاياه وحِكمه الشعريّة معاني الوعظ والتوجيه والإرشاد الدّيني والتحذير والتذكير بما ينتظر المرء من مصير حتميّ نهائيّ ودعوته إلى ترويض النفس ومحاسبتها وتطهيرها من أوجاع الدُّنيا

الزائلة، وقد "كان لسلطة الفقهاء تأثير في دفع النّاس إلى التعصّب الدّيني والتظاهر بالعبادة والعزوف عن الدّنيا ومباهجها، حتى كَثُرَ المتزهّدون، وأصبحت صناعة الزُّهد شيئاً مرغوباً،[٤٥] وهذا ما سيظهر لاحقاً في الجانب التطبيقي.

وعلى صعيد آخر، فإن ابن خاتمة من الشعراء الأندلسيين الذين شعروا حقاً بندمه وتحسّره وأسفه ولوعته وغوصه في بحر الدنيا وأمواجها المتلاطمة وموجاتها العاتية، وقد أدرك – تماماً– غرور الدُّنيا وزوالها، فأراد أن يُذكّر النفس البشرية الشرود بذنوبها والنفس التائهة وآثامها؛ طلباً لمرضاة الله تعالى وخشيته وطاعته وتقواه، وتكاد تكون ظاهرة بوضوح في طبيعة البشر الذين انغمسوا في اللّذات والملّذات، إذْ لابُدّ من ندمٍ وتحسرٍ وأسفٍ ولوعةٍ يخلّد فيها البشر إلى أنفسهم بنظرة خاشعة وقلوبٍ خاضعة لله تعالى عزّ وجلّ، وقد "استفاد ابن خاتمة من الأفكار الإسلاميّة العامّة ممّا يحثُّ على الطّاعات، وحُسن المعاملة، ومكارم الأخلاق".[٤٦]

إنّ مقصد الدارس من لفظة (الأعلى) –الطرف الأول من هذه العلاقة التقابليّة– الذات الإلهيّة العلويّة والخشية والخوف منها، وهذه الذات موجودة في كل مكان وزمان، لقوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾،[٤٧] وفي موضع آخر، قال تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾،[٤٨] والدارس يقصد بها –كما في اتجاهات خوف العموم في شواهد شعر الوصايا والحكم ومضامينها لدى ابن خاتمة السلطان أو الحاكم أو راعي الرّعية– خليفة الله على الأرض– لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾،[٤٩] وإنّ الخليفة أو السلطان أو الحاكم أو راعي الرعية يشكل سلطة شرعية على شعبه ومواطنيه، بينما يُقصد بلفظة (الأدنى) –الطرف الآخر من هذه العلاقة التقابلية– النفس البشرية المطمئنة المحكومة (الرّعية أو الشعب) وسلوكها وتصرفاتها وأعمالها وفعالياتها وحِراكها ونشاطاتها في الحياة، ومن المعلوم–لدينا– أن الطرف الآخر–وهي النفس البشريّة لا يشترك مع الطرف الأول– وهي الذات الإلهية وحدها فقط– في الصفة والمنزلة والقدرة والمكانة لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، وأخص قدرة الله تعالى وصفاته ومنزلته ومكانته...إلخ، واستثني من هذه

الصفات -كذلك الأمر- السلاطين في عصر ابن خاتمة الذين مثّلوا سلطة سياسية عُليا في عصره على شعوبهم وتنحصر اتجاهات الخوف في علاقة (الأعلى) بـ (الأدنى) في:

أ- الحضّ على خشية الله تعالى ومخافته وتقواه وطاعته:

عَبَّر شاعرنا عن علاقته بالذات الإلهيّة العلوية -كإنسان مخلوق من مخلوقات الله تعالى الضعيفة وقدرته في الدُّنيا بسيطة- ونهل شروط الخشية والخوف والفزع والهلع والرهبة والرّوع من عظمة ربّه تعالى وجلاله وقداسته داعياً النفس البشرية لتقوى الله تعالى وخشيته ومخافته وطاعته، وممارسة فِعل الاستقامة وامتثال أوامره وتجنب نواهيه، مستمداً دعوته من مرجعياته الدينية الإسلامية الأصيلة وواقعه الوظيفي العملي، فقد عمل فقيهاً (مفتياً) في موطنه -كما أسلفت- وكثيراً ما تأثر بثقافته الإسلامية ووظيفته الفقهية ودفع بهما في وصاياه وحكمه الشعرية، واستمد دلائله وبراهينه وحِججه من سور القرآن الكريم وآياته القرآنية الكريمة مباشرة أو تضميناً لمقاصدها ومضامينها -كذلك الأمر- قصد إلى فهم الأحاديث النبوية الشريفة وبعض أقوال الخلفاء الراشدين وبعض نماذج من الشعر العربي القديم المشهورة واستيعابها والتأثر بمضامينها ومحتوياتها في لغته الشاعرة واتجاهاتها ومضامينها؛ بسبب اطلاعه الواسع على تراث الحضارة العربية الإسلامية ونتاجاتها المتنوعة، التي تحضُّ -مثلاً- على تأصيل ترسيخ فضيلة الخشية وشِرعة الخوف وجلال الطاعة ووجوب التقوى وبيان طريق الصلاح والفلاح والتخويف من يوم الحساب والجزاء في الآخرة، على ما تنصّ عليه من أعمال النفس وتوبتها النصوح وتوخيّ حُسن العاقبة وتثقيف النفس وتطهيرها؛ لأن التقوى هي المعيار الأخلاقي والتربوي الأسمى التي تجعل المرء يشعر بالهناء والسعادة في دنياه، وما يترتب عليها من ممارسات وقيم سلوكية إيجابية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن صلى الله عليه وسلم يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ صلى الله عليه وسلم مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾.[٥٠] إنَّ ابن خاتمة -كما أَسلفتُ- لم يجد -أولاً- ما يوصي به النفس البشرية خيراً من تقوى الله تعالى وخشيته ومخافته وطاعته...إلخ؛ لأنها خيرُ الزّاد، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾،[٥١]

وذكّرهَا بملاك الأمر تقوى الله وخشيته ومخافته وطاعته...إلخ، واحتدمت جذوة مشاعره وقبس أفكاره وتأججت عواطفه وشدّة انفعاله، عندما ذكّرها بعدّة الصلاح والفلاح في الآخرة، وهي خشية الله تعالى ومخافته وطاعته وتجنُّب نواهيه بعزمٍ واقتدار؛ لأَنّ العمر ماضٍ لا محالة زائل، وأَقرَّ بحتمية الموت، وهو لا يُخفي خشيته وخوفه وهلعه وفزعه وروعه الشديد من عاقبته، وهو سيواجه ربّه يوم الحساب، متأثراً ضمنياً بالأجواء الإيمانية النفسية والفكرية في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾،[٥٢] وكما في موضع ثانٍ قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ ﴾،[٥٣] فجزاء المتقين جنات نعيم وعيون مياه جارية لذةً للشاربين من المتّقين، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾،[٥٤] وإن طريق الفلاح وعدّة الصلاح تكمنان في تقوى الله وخشيته ومخافته وطاعته.. إلخ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾،[٥٥] وتكفل الله تعالى بجزاء المتقين وأنه معهم في كل مكان وزمان، لقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾،[٥٦] وتحَسَّب الله تعالى النفس التائهة وتوعدها في الآخرة، لقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾،[٥٧] وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.[٥٨]

وصرّح شاعرنا ببعض القيم الإسلامية السلوكية النبيلة، التي تضبط سلوك النفس البشرية، التي يجب أن تتحلّى بها وتتلقاها من تجاربها وخبراتها الطويلة وسلسلة ظروفها المتقلّبة في شتَّى مناحي حياتها، فقال:[٥٩]

مِـــلاكُ الأَمْــرِ تقــوى اللهِ فَاجْعَــلْ	تُقَـــاة عُـــدَةً لِصـــلاحِ أَمْـــرِكَ
وَبَـــادِرْ نَحْـــوَ طَاعَتِــــهِ بِعَـــزْمٍ	فَمَـــا تَـــدري مَـــتى يُمْضَـــى بِعُمْـــرِكَ

ومن الملاحظ أن معجم وصاياه وحِكَمُهُ الشعرية –عادةً– يميلُ لاستخدام الطاقات اللغوية من نحو لغتنا العربية –على الأغلب– والأفعال الدّالة على الوعظ والإرشاد والحضّ على التقوى والطاعة لله تعالى، التي تشي بحالة الخوف التي يعيشها شاعرنا؛ ممّا يدل على سعة ثقافته اللغوية التي لم تتوقف عند ثقافته الدينية والفقهية فحسب "ولا شكّ أن طبيعة اللغة العربية، والخصائص التي تميّزت بها،....فضلاً عن عناية الأُمراء والملوك بأمر اللغة، وبذلهم الجهود والطاقات في سبيل الحفاظ عليها؛ لأَنَّهم على جانب من الفصاحة، والإلمام باللغة وآدابها، وعلى إدراك بَيِّن بأهميتها في بناء المجتمع"،[٦٠] فمثلاً، استخدم فعلي الأمر (فاجعلْ، بادرْ) للاستفادة من دلالاتها ومعانيها وإيحاءاتها وتفاعلاتها داخل السياق العام للنّصَ، وتأكيداً لمقاصده من نُصحٍ وإرشادٍ وحضٍّ ووعظ وتوجيه وترهيبٍ النفس من الله تعالى وتخويفها منه، ناهيك عن اعتماده على أسلوب الاستفهام؛ رُبّما زيادة في توضيح أفكاره وتصوير عواطفه المتأججة ومشاعره الدينية الصادقة، وترسيخ أفكاره ونزعته الإسلامية وإلحاحه على تثبيتها في أذهان النفس البشريّة وعقولها، وإن استغلال مقدرته النحوية أيضاً – هدفه تخويف الآخر والتأثير فيه وحضّه على الخشية والخوف من الله تعالى وتقواه وطاعته....إلخ، وكأنّه يقف أمام نفسٍ بشرية لاهية، تعبث في سني عمرها؛ ظنّاً منها البقاء والخلود، فمارس شاعرنا ثقافة الخوف والتخويف والترهيب عليها، وكأنّه –أيضاً– يُقدِّم فتوى شرعية لها، ناهيك عن قولنا –كذلك– إنّ كلامه يصوّر جانباً من جوانب الحالة الاجتماعية التي كانت سائدة في المجتمع الأندلسي، والقدرة التي وصل إليها شاعرنا في ترهيب الآخر، فتعدّ الأندلس –الفردوس العربي والإسلامي المفقود– امتداداً للحضارة العربية الإسلامية وتعاليمها السمحة، خصوصاً، قد "وصل الإسلام إلى الأندلس مع العرب الفاتحين، وكان لهذا الحدث تأثيره الكبير في هذه البِقاع القصيّة عن نقطة الإشعاع الفكري الأولي وعن مركز الخلافة، وكان الرابط المشترك المهم بين أفراد الجيش الفاتح على مختلف أجناسهم ولغاتهم هو القرآن الكريم ونشر تعاليمه وقيمه ومبادئه بين شعوب هذه البلاد".[٦١]

وتحفظ -لنّا- وصاياه وحِكَمه الشعريّة صوراً أُخرى من اتجاهات فضيلة الخشية ومصاب الداخل وبواعثه الرئيسة خوفه من الله تعالى وتقواه وطاعته وتجنب نواهيه، التي تفرع منها -أيضاً- طلبه تذلّل النفس ولومها لذاتها واستشعارها بالذنوب واحتقارها لكيانها؛ لابتعادها عن خشية الله تعالى وعبادة خالقها وتقصيرها في طاعته، الذي أثار ألماً حادّاً وحزناً عميقاً في نفسه، وأوصاها بلباس التقوى الأنيق وصورته الفنية المعبرة، ورأى في التقوى ثوباً جميلاً؛ لأنّ لباس التقوى شرفٌ وعِزٌ وكرامة لها، وهو لباسٌ دائمٌ لا محالة في الآخرة، بينما لباس الدُّنيا زائل بلا شك، وكذلك الأمر نعيمها فانٍ، متأثراً بألفاظ القرآن الكريم ومضامينها، كما في قوله تعالى: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾،[٦٢] وتعد وصيته "وسيلة لتطهير النفس وتهذيب الخلق".[٦٣]

ودعاها للتقشف في كساء نفسها وجسدها والتعفّف فيه والابتعاد عن البذخ والإسراف؛ لأنَّ الدُّرَ لا يُشينه أو يُعيبهُ الصّدف أو يُفسِدُ جماله وأناقته ومظهره الخارجي، فهو مع جوهر النفس لا مع مظهرها، وعبر عن شعوره بلحنٍ حزينٍ وبأسلوبٍ بسيط يقرب في كثير من مراحله من النثريّة والابتذال والوضوح والبساطة والتعبير المباشر؛ ليقترب في أسلوبه من الشعر التعليمي وبهذا تدنو لغته من لغة التخاطب، وقد استعان بدلالات فعل الأمر (اكْسُ) المعنوية والفكرية والنفسيّة، وتجلّى الكساء بمعنيين: الأول مجازي- التقوى، والآخر حقيقي لِباس الجسم وكسوته، وبرر رفضه للترف وإقلاعه عن التقوى وخشيته من الله تعالى وخوفه وطاعته واجتناب نواهيه؛ لأن العقاب يكمن بمجموعها، وفي طمعه مرارة الذنب وعُلقم النّدم، فقال:[٦٤]

أَحْـــرَى ثِيابَـــكَ أَنْ تُجَمِّلَــــهُ ... ثَــوْبُ التُّقــى فَلبَاسُــهُ شَــرَفُ

ثُمَّ اكْــسِ جِسْــمَكَ ثَــوْبَ مُقْتَصِــدٍ ... فَالــدُّرُّ لَــيْسَ يَشْــينُهُ الصَّــدَفُ

إن "طاعته –سبحانه وتعالى– جِماع الخير كله، وقد حثّ الله تعالى عليها في كتابه في آيات متعددة، وبها أرسل الرُّسل ليخرج النّاس من ظلمات النفوس إلى أنوار معرفة القدوس". [٦٥]

ب– الاتجاه الزُّهدي:

١– ثوب الخوف وتلاوة فِعل الندم والرضا والتسليم والقَبول والتواضع وحالة من الذُّهول والاستغراب:

إنّ من اتجاهات الخشية أو الخوف من الله تعالى اتجاه الزُّهد النابع من وازع شاعرنا الديني العميق وتنشئته الإسلامية المحضّة ورهبته وفزعه من الله تعالى، وإيمانه الشديد بأن الدُّنيا غرور، وأن أحوالها متقلّبة، فهي لا تبقى على حال، قال الله تعالى عنها واصفاً إياها: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. [٦٦]

إنّ ابن خاتمة قرع في النفوس البشريّة الغارقة في ذنوبها وملذاتها وشهواتها ومعاصيها وآثامها السائرين وراء رغباتهم وتفاخرهم وتكبرهم وبطرهم في المعاش والملبس ناقوسَ الخشية من الله تعالى وخوفه، فصوّرها نادمة على أفعالها وأعمالها وسلوكها في حياتها، مُشخِّصاً الخوف وفِعل الندم، ومُشبّها بالآدمي الماثل أمامه، وهما يرتديان لباساً أنيقاً جميلاً. وفي واقع الحال إنّ التأنق المفيد يكمن في لباس ثوب الخوف من الله تعالى والنّدم والتحسّر على ما فات؛ لأنّ شرف النفس وافتخارها يكمنان في جوهرها لا في مظهرها، مُتمثِّلاً صورة خلع ملابس المعتمر أو الحاج البيضاء الأنيقة والفاخرة عند إحرامه في أقدس مكانٍ على الأرض– وهي أرض الحرم المكي الشريف– ومُستفيداً من دلالات فعلي الأمر (دَعْ، وكُنْ) المعنوية والفكرية والنفسية في حرم السياق العام للنّصّ، وإن الغرض منهما النصح والإرشاد والتوجيه نحو صواب الطريق وجادته، فقال: [٦٧]

دَعْ التَّـــأَنُّقَ في لُـــبْسِ الثِّيـــابِ وَكُـــنْ لله لابِـــسَ ثَـــوبَ الخَـــوْفِ والنَّـــدَمِ
لَـــوْ كَـــانَ لِلْمَـــرْءِ في أثوابِـــهِ شَـــرَفٌ مَـــا كَـــانَ يَخْلَـــعُ أَسْـــناهُنَّ في الحَـــرَمِ

وتدور معاني الخشية أو الخوف من الله تعالى واتجاهاته وبواعثه في زهده كثيراً، حيث يكمن في الدعوة إلى الإعراض عن العالم الأرضي السُّفلي ومترفاته وملاهيه وشهواته وملذاته، والحضّ على القناعة والرضا بما قدّر الله تعالى للنفس من رزق مقسوم وعيش مكتوب، وإن القناعة هي "الرضا بما قُسم للمرء من متاع الدُّنيا، وعدم النظر إلى ما للغير، فليس للحياة بدون قناعة لذة ولا من غير رضاً قيمة وما ضاقت الدُّنيا إلاّ في وجه من اتّخذ الجشع والحرص ديدناً ولا عاش سعيداً إلاّ من كان الرّضا حليفُه والزُّهد قرينه"،[٦٨] قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾،[٦٩] وقال عمر بن الخطاب –رضي الله عنه: "إن الطمعَ فقرٌ، وإنّ اليأسَ غنى، وإنّه من ييأس عمّا في أيدي النّاس استغنى عنهم"،[٧٠] وقيل لبعض الحكماء ما الغنى قال: قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك، وفي ذلك قيل:[٧١]

اقِنَـــــع بِعيشِـــــــك ترضَـــــــه واتـــــرِكْ هَـــــواكَ تعـــــيشُ حُـــــرّ
فلـــــــربَّ حتـــــــفٍ سَـــــــاقَهُ ذهـــــــــــبٌ وَيـــــــــــاقوتٌ ودرّ

واستعان ابن خاتمة بطاقة فعل الأمر الإيحائية (أَعرِضْ)، وكأنه يشكو من فساد النفس البشرية وبذخها وترفها –أحياناً– وميلها عن جادّة الصراط المستقيم في الدُّنيا، وسقوطها في بحرها الهائج وأمواجها المتلاطمة، وأوصاها بالزُّهد والتقشف في خضم أمواج الحياة الفانية وأعاصيرها الهوجاء وريحها المدمّرة؛ لأن السعادة فيها –أحياناً– لحظية ووقتية لا تدوم طويلاً في حياتها الفانية، فقال:[٧٢]

أَعْـــرِضْ عَـــنْ العـــالَمِ مُسْتَرضِـــياً مَـــنْ لَـــيْسَ تَخْفَـــى عَنْـــهُ مِـــنْ خَافيـــهْ
مَـــنْ لَمْ يَكُـــنْ رِضـــى الـــوَرى قَصْـــدُهُ خَـــــيَّمَ في بَحبوحَـــــةِ العَافِيـــــهْ

إنّ تمسك النفس البشريّة بالحياة الدُّنيا يُعدُّ خسارةً فادحةً؛ لأنَّ "حقيقة الحياة جُبلت على حُبِّ النّاس لها وتعلّقهم بها، ليست إلاّ مسرات قليلة عابرة، يستسلم النّاس بعدها شيئاً فشيئاً إلى ألوان من الفجائع والأحزان الملِحّة".[٧٣]

وقد أثقل الخوفُ من الله تعالى خشيته وكاهل ابن خاتمة، فنراه يُطلُ علينا بصورة حيّة من صور الزُّهد الداعية لخشية الله تعالى ومخافته وتسليم شؤون النفس البشريّة له، والرضا بما قسم لها، و"الرضا خلاف السخط، ويُراد بالرَّضا تقبّل ما يقضي به الله عزّ وجلّ من غير تردد ولا معارضة"،[٧٤] وأيقن الشاعر بأن الرزق معقودٌ بيد الله تعالى، كما الكون -من قبل- محكومٌ بنظامٍ رباني متين، فلماذا أيتها النفس البشريّة، التفكير والانشغال النفسي بأُمور الدُّنيا الفانية وزينتها ومتاعها الزائل؟

وهنالك لون جديد من ألوان الزُّهد، وهو التواضع الذي ينبع من مشاعر الخشية والخوف من الله تعالى، وهذا اللون يُشْعِرنا بصفاء النفس وانقطاعها لله تعالى، وهذا الشعور هو الذي يدفع إلى تطهير النفس البشرية من النوازع الشريرة: كالتكبر والخيلاء، اللذين نهى عنهما الله تعالى، كما في قوله: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾،[٧٥] والشاعر أوصى النفس البشرية بالتواضع والتذلّل والخضوع والانكسار النفسي والعاطفي لله تعالى وخشيته وتقواه وورعه وفزعه والابتعاد عن اقتراف الذنوب والمعاصي والآثام، والإقلاع عن خلط الخبيث بالطيّب والغثّ بالسمين والضّار بالنافع، وشاعرنا "حرص في إطار مهمات الشعر السلوكية التربوية على نشر القيم والمثُل، التي تشكل الشخصية المثالية، كما يراها المجتمع[٧٦] وقد استفاد من قدرته اللغوية من فعل الأمر وتوظيفه فنياً مثل: الفعل (دِنْ) في شحن النفس البشريّة بالخوف من الله تعالى وخشيته والعمل على تطهيرها من الأمراض الاجتماعية التي سادت في المجتمع الأندلسي ونصحها وإرشادها وتوجيهها سلوكياً وتربوياً آنذاك. و"شعر الزّهد بصورة عامّة، تطفو عليه مِسحة كئيبة بائسة، وتُظلّله روح يائسة مُستسلمة، تصلّ إلى حَدِ التخاذل والانهزام، فهي روح عقيم تحكمه عادةً سِمَة المبالغة والتضخم، وهي صفة لا تقتصر على الزُّهد، وإنّما تنسحب على الشعر الديني

قاطبةً، ثم هو في جملته يتحدّث عن هفوات النفس وزللها، وعن الحياة وخدعها ثم يستغفر عن الذنب ويطلب المغفرة"،[77] وبنبرة خطابيّة دينية زاهدة، قال:[78]

دنْ بالتَّواضُــــعِ والإخبـــاتِ مُحْتَسِــباً ... تَفُــقْ عــلاءً علــى أهــلِ السِّــياداتِ
فــالتُّربُ لَمَّــا غــدا للرّجــلِ مُتَّطئــاً ... تَمَسَّــحَ النَّــاسُ مِنْــهُ في العِبــادَاتِ

فالشاعر قرّر إحساساً إنسانيّاً عامّاً من تجاربه الفردية وخبراته الطويلة؛ لشعوره بمرور سني عمره سريعاً كلمحة البصر العابرة، وإنَّ حصيلة المتع الجمة والملذات التي تذوّقها لم تكن إلاّ صفقة خاسرة وتجارة بائرة، وكثيراً ما انتهت إلى طريق التلاشي والعدم بسرعة، وأراد الشاعر أن يعكس إحساسه وينقله لمتلقيه ومتذوقيه في عصره؛ طمعاً برضا الله تعالى وخشيته وخوفه منه. ومن أحسن ما قيل شعراً:[79]

تَواضَــعْ تكُــنْ كَــالنَّجمِ لاحَ لِنــاظِرٍ ... عَلــى صــفحاتِ المــاءِ وَهُــوَ رفيــعُ
وَلا تَكُــنْ كالــدُّخانِ يَعْلُــو بِنَفْسِــهِ ... عَلــى طَبَقــاتِ الجَــوِّ وَهُــوَ وَضيــعُ

٢- محنة التفويض عند النوائب ووقوع المصائب وذمّ الحرص الشديد:

ومن اتجاهات الخوف من الله تعالى وخشيته -المتكررة بصورة متعددة- انشغال ابن خاتمة بتوصية النفس البشرية بتفويض أمرها لله تعالى عند الشعور بالنوائب واشتداد المِحن وتكالب الشدائد وتراكم المصائب دون تفكير وإجالة فِكر؛ لضعف الكائن البشري أمام الله تعالى من جهة، وهزله واضطرابه وتشتته وتيهه أمام نوائب الدّهر الجِسام من جهة أُخرى، إنَّ "أَحوج ما تكون النفوس إليه عندما يبرح بها الألم، وتضيق بها الحياة، وتتكدّس حولها الهموم، فتلجأ إلى الدِّين تبغي فيه الحماية، وترجو في رحابه الاستقرار، والنفس البشريّة تنزع تلقائياً إلى قوة عُليا، كلما مسّها الضرّ أو هددتها الأخطار"،[80] وفي ذلك يقول الشاعر:[81]

إذا مَــا الــدَّهْرُ نَابَــكَ مِنْــهُ خَطْــبٌ ... وَشَــدَّ عَليــكَ مــن حَنَــقٍ عِقَالَــهْ
فَكِــلْ للهِ أَمْــرَكَ لا تُفَكِّــرْ ... فَفِكْــرُكَ فيــهِ خَــبْطٌ في حِبَالَــهْ

قال النبي صلى الله عليه وسلم: {تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله فإنكم لن تقدروا خلق قدره}.[٨٢] وابن خاتمة طالب النفس البشرية بالعزوف عن الانهماك بخطوب الدّهر ونوائبه وشتمه، وتوكيل الأُمور لله تعالى والاستعانة بقدرته وهيمنته وسطوته وسلطانه وهيبته دون التفكير بها طويلاً؛ لكي لا تبتعد عن الدّين الإسلامي وتعاليمه السمحة وشرعه القويم، وعاد لفعل الأمر الذي دار في وصاياه وحكمه الشعرية بشكل مُستمر، مثل: فعل الأمر (فكلْ)، واستفاد من دلالاته الإرشاديّة والوعظية والنصحيّة والإقلاع عن معاتبة النفس ولومها، ورفع الظلم والجور عن الدّهر، وكل ما تنشغل به النفس من تقلبات الزمان يعود إلى ما سُجّل عليها، ولا علاقة للزّمن به، فليس أَمامها إلاّ الاتكال على الله تعالى، وعليها ألاّ تدعْ هذا الانشغال بالدُّنيا والشعور بضنك الحياة أن يُمزقها ويُشظيها نفسياً وفكريّاً.

وقدّم ابن خاتمة لوحة فنية توشّحت بذمّه للنفس الحريصة كل الحرص وإدمانها عليه؛ لشدة زهده في حياته، وأكدّ على ترسيخ قيمة سلوكية نابعة من ديننا الإسلامي، وهي تفويض أمور الدُّنيا لله تعالى؛ خشيةً وخوفاً من الله تعالى وطمعاً لنيل مرضاته، فهو الذي يُجيب المضطر إذا دعاه، لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾،[٨٣] واستغلّ شاعرنا طاقات فعليّ الأمر في معجمه الشعري -بشكل متكرر- (ففوضْ، وكُنْ) الدال على نصحه وإرشاده ووعظه، وتأكيد مقاصده الواضحة. فالزُّهد في المجتمع الأَندلسي "من الناحية الاجتماعية نجده استجابة لاتجاهات الجماهير ومُتنفساً لآلامهم في حياتهم المضطربة، ومجتمعهم المعقد المحدود"،[٨٤] والشاعر مشحونٌ بالمبالغة فيه، هاتفاً ومنادياً بالآخرة الباقية، قائلاً: [٨٥]

يَــا غَادِيّــاً في حِرْصِــهِ رَائِحَــاً	لِرَفْضِــكَ الحِــرْصَ هُــوَ الخَــيرُ لَــكْ
لَمْ تَــدْرِ أَنَّ اللهَ سُــبحَانَهُ	هُــوْ الّــذي بِفْضَــلِهِ اسْــتَقْبَلَكْ
تَــراكَ مُضــطَرّاً بِــلا قُــوَّةٍ	فَمــنَّ بِــالقُوَّةِ وَاحتــارَ لَــكْ
فَفــوِّضِ الأَمْــرَ لِتَــدْبيرِهِ	مُرْتَضِــيّاً مِنْــهُ بِمَــا حُــقَّ لَــكْ
وَكُــنْ كَمَــا كُنْــتَ لَــهُ أَوّلاً	يَكُــنْ لَــكْ الآنَ كَمَــا كَــانَ لَــكْ

و"تتقاطع هذه الأبيات من حيث الفكرة والمضمون مع القصة الآتية: عاتب أعرابي أخاه على الحرص، فقال يا أخي أنت طالب ومطلوب يطلبك من لا تفوته، وتطلب أنتَ ما قد كفيته، وكأن ما غاب عنك قد كشف لك، وما أنت فيه قد نقلت عنه كأنك يا أخي لم ترَ حريصاً محروماً وزاهداً مرزوقاً، وفي ذلك قيل:"[86]

أراكَ يزيـــــدُكَ الإثـــــراءُ حِرصَـــــاً	علـــى الـــدُّنيا كأنـــكَ لا تمـــوتْ
فَهْـــلْ لَـــكَ غايـــة إن صِـــرتَ يَومـــاً	إليهـــا قُلـــتَ حســـبي قـــدْ رضـــيتْ

وأصرّ ابن خاتمة إصراراً شديداً على تهذيب النفس البشرية، وأوصاها بالتحلّي بالآداب الخاصّة بذم الحرص الشديد والزُّهد فيه، ودعاها للاتكال على خالقها في السرّاء والضرّاء، والتوكّل عليه في الأرزاق وتقسيمها وتوزيعها، لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ ﴾،[87] وتعجَّب الشاعر من نَهج النفس وشِرعتها في الحياة الزائلة، واستغرب من سلوكها، وهي تُنفق عمرها الثمين وتهدره بلا جدوى؛ كي يعود عليها بالخير والنفع والبركة؛ لأنَّ النفس لا محالة هالكة، حينما تُسخِّر نفسها بجمع المال وتخزينه؛ خوفاً من ضائقة الفقر وآفة الضنك والشعور بالجوع والإحساس بالفاقة والشعور بالأزمة، وهذا ممّا أثار حفيظة شاعرنا ممارسة النفس لمثل هذه السلوكيات السلبية، وإن الأصل فيها أن تُفكر بالغاية الحقيقية من خلقها ووجودها على الأرض، فقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾.[88]

إنَّ خلاص النفس الحقيقي يكمن في العودة الحقيقية لله تعالى والتوبة الصادقة النصوح، وقد استرفد شاعرنا نصحه وإرشاده وتوجيهه لها من إيمانه العميق بالله تعالى وثقافته الواسعة في دينه ولغته من جهة أخرى، ودعم معانيه ومقاصده معتمداً على فعلي الأمر –كما أسلفت– (ارجعْ، وانظرْ) في إنارة الطريق للعابد التائب العائد لربّه، فقال منادياً خطيباً صائحاً في وجه النفس التائهة:[89]

يَـا مَـنْ غَـدَا يُنفِـق العُمْـرَ الثَّمِـيْنَ بِـلاَ جَـدوى سِـوى جَمْـعَ مَـالٍ خيفـة العَـدَم
ارجِــعْ لِنَفْسِــكَ وَانظُــرُه في تَخَلّصِــهَا فَقْــدَ قَــذْفت بِهَــا في لجَّــةِ العَــدَمِ

وضمّن شاعرنا معجمه اللفظي وجوّه الفكري من شعر المتنبي (ت٣٥٤هـ) في قوله:[٩٠]

وَمَـنْ يُنْفِـق السَّـاعَاتِ في جَمـعِ مَالِـهِ مَخَافَــةَ فَقْـرٍ فالّــذي فَعَـلَ الفَقْــرُ

وهذا التلاقي في اللفظ والمعنى والفكرة والرؤية "قصد الشاعر إليه قصداً؛ ليستعين به على تأكيد معنىً أراده"،[٩١] في قصيدته ما يُشير إليه اطلاّعه على سياق اللفظ والمعنى والفكرة والرؤية المضمّنة بطريقة إشاريّة غير مباشرة في نقل اللفظ والمعنى والتصرف به وإيراده بعبارة جميلة، ومحاولة نقل جوّها إلى قصيدته، بخاصة إذا كان المنقول مشهوراً بحيث يشكّل مفتاحاً للقصيدة التي أُخذ منها أو يكون قادراً على حمل معنى السياق الذي أُخذ منه بشكل موجز أو على نحو يوحي بمعنى السياق القديم السابق، وهذا فيه امتحان لمقدرة الشاعر الفنية، فهو يحاول أن يصل إلى الدرجة الفنية للمنقول عنه حتى لا يبدو عيباً في القصيدة، فاستفاد اللاحق من ألفاظ السابق ومعانيه وأفكاره ورؤاه. والشاعر قصد في إشاراته المنقولة قصداً واعياً، فهو يعلم مصدرها، استخدمها استخداماً فنياً له غايته ووظيفته. وأقول إنَّ "الفَنَّ بدوره، وبوسائله الخاصَّة، فاعلٌ في الحياة الاجتماعية وتطوّرها؛ لأَنَّه مؤثر في الوجدان الإنساني، فاعلٌ فيه، من جملة ما يُعرض للإنسان من دوافع ومؤثرات".[٩٢]

وحَفِلَ ابن خاتمة برسم ملامح السلوك الاجتماعي القويم -بشكل كبير- على نحوِ ما نجده في بعض وصاياه وحكمه التي تنبع من مصدر أساسي، وهو الخشية من الله تعالى وخوفه وطاعته وتقواه واجتناب نواهيه. فهو يقف موقفاً صلباً أمام النفس المفرطة في حرصها الشديد على تأمين متطلبات حياتها اليومية ومستلزماتها وطرق عيشها الرغيد؛ ممّا قد يُفقدها إيمانها وثقتها بالله تعالى، ويترتّب على سلوكها نبذها عند خالقها وبُعدها عنه من جهة، وعند النّاس من جهة أُخرى. وقدّم شاعرنا الحل الشافي لهذا السلوك الإنساني القلِق بوساطة دعوته النفس للتعقل والتدبر في حُكْمِهَا على الزمان وتقلّباته ونوائبه، ودعاها للتأني في

التعامل معه بحذر شديد؛ لأنَّ الزّمان فانٍ، وشيمه ناقصة، وريحه متقلّبة، فكم جرت الرّياح بما لا تشتهي السفن؟[٩٣]

٣- الكشف عن حال الدُّنيا والانعطاف عنها والتحذير من عاقبة الهوى:

كشف ابن خَاتمة اللثام وأماطه عن ماهية الدنيا وأحوالها المتقلّبة وحالها الفاني من جهة، وحال النفس التائهة في بحر ظُلماتها من جهة أُخرى، قال صلى الله عليه وسلم: "حُب الدُّنيا رأس كل خطيئة".[٩٤]

وفي صورة زهدية نابضة بالاتعاظ والتدّبر والإرشاد رسم شاعرنا لوحةً معبرة عن الدُّنيا وإغوائها للنفس، وهذه الدُّنيا -في تصوّره- تتمنى لو يغرق الخلق بلججها وتضيع النفس في أغوارها، فمن أراد النجاة من الغرق بها ما عليه إلاّ أن يلتمس طريقة إيمانية سليمة، والإقلاع عن اقتراف المعاصي والذنوب والآثام والسيئات والخطايا من جهة، ومن أراد الهرب من الغرق في جنبات الدُّنيا ومناكبها وشِعبها ترك ممارسة فعل التمسك بحبالها الواهية والفِرار من وجه ملذاتها وشهواتها، وأن تنكص النفس على أعقابها وصراعها المرير مع الحياة المتقلّبة، فهي مُثخنة بجراحها ومُتعبة من تبعاتها من جهة أخرى، وحقاً يعجب المرء لهذا التملّك لِزمام وصاياه وحكمه الشعريّة ذات السلوك التربوي التعليمي الإسلامي، التي يبني فيها صوراً دقيقةً محكمةً في تؤده وتفصيل مُدهشين يرسل عبرهما رسائل شعرية يُسجِّل فيها بصدق وأمانة أمانيه وطموحه ووعظه وإرشاده وتوجيهه للنفس؛ ذلك أَنَّه في لحظة من لحظات اليأس والعجز أمام حربٍ ضروس هي الدُّنيا وصراع النفس المرير مع متطلباتها وتقلّباتها. وفي وطأة استهتار النفس بما ستظهر به في حياتها، تراءت صورة الدُّنيا أمام عيني شاعرنا بصورة أنياب وحشٍ كاسر وأفعاله الماكرة وضحكته الحائرة، فالدُّنيا -في تصوّره- وحش كاسر وأنيابها ناشبة في جسد النفس، وهي تكشف للنفس عن وجهها الحقيقي، وتُظْهِر سرورها اللحظي الذي يُخالطه الحزن المرير، ويُخالجه الأسى والحسرة والندم والخوف والفزع والرعشة؛ وكأن سرورها المزيّف ضحكة نادم أو خائف أو مضطرب أو مهتز أو مستعبر بعد استهتار النفس الطويل بحياتها، وفي ذلك يقول:[٩٥]

مَـا أَبقـتْ الـدُّنيا علـى نَاسِـكٍ كَـلاً وَلاَ تَمَّـــــــــت لِمُسْـــــــــــتَهِرِ
سُـرورُهَا يُشْـرِفُ عـنْ حُزْنِهَـا كَأَنَّهَـا ضِـــــــــحْكَةُ مُسْـــــــــتَعْبِرْ

واتّجه شاعرنا صوب تناقضات حياة الدُّنيا وتقلّباتها وتغيّر أحوالها وأيامها وسننها وغدرها،داعياً النفس للعظة والعبرة والخوف من القادم، كاشفاً مزالق الدُّنيا وتغيّر أشكالها، رافضاً التمسك بها؛ لأنّها غرور ومتقلّبة لا تبقَ على حالٍ واحدةٍ، حتى البشر فيها متغيّرون، حسب موازينها وتحوّلاتها.

وحذّر الشاعر من عواقب ممارسة سلوك الهوى والمجون، وإن تحذيره مرتبطٌ لديه بموقف فكري مؤدّاه أن الإنسان يجب أن يتقي الله تعالى ويخافه ويخشاه -بشكل دائم- فقال:[٩٦]

إذْا مَـا دَعَتْـكَ الـنَّفْسُ يومَـاً لِرِيبَـةٍ فَحَـاذِرْ عِقَـابَ الله فهـو شـديدُهُ
فَصَـبْرُ الفَـتى عَمَّـا يُرِيـدُ أَخْـفُ مِـنْ تَصَـبُّرُهُ كُرهـاً لِمَـا يُرِيـدُهُ

وأوصى النفس -في البيتين السابقين- بترك المعاصي وعدم السماح لها أن تمارس سلوكها كيفما تشاء، وطالبها بترك ممارسة هواها ومجونها وترفها، وتلبية رغباتها وشهواتها، ظنَّاً منها أن تقاوم نوائب الدّهر ومستلزمات حياتها، وأوصاها التحلّي بالصبر -قيمة إسلامية نبيلة- "إن الإسلام هو الاتجاه الصحيح، ذروته التحمل، والتحمل هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو الإيمان، والإيمان هو القَبول، والقَبول هو الالتزام، والالتزام هو العمل، والعمل هو السلوك، وجوهر السلوك هو "الصبر""[٩٧] عند اشتداد كروب الدُّنيا المتنوعة على مرّ العصور وكرّ الدّهور، والصبر أَفضل من التصبّر، وقال تعالى:﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾،[٩٨] و"الصبر" على أوجه: صبرٌ على طاعة الله، وصبرٌ عن محارمه، وصبرٌ على المصيبة وعند الصدّمة الأولى".[٩٩] وهو أَفضل من التعجّل -أيضاً- لأَنّ "رُبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيثاً"،[١٠٠] وعمد في إرشاده وعظته وتوجيهاته -هنا-إلى استغلال طاقة أُسلوب الشرط الفنية (فعله وجوابه)؛ لإظهار الشعور الإلزامي بالخوف من الله تعالى وخشية عقابه الشديد، والدعوة للتمسك بالقيم الإسلامية السلوكية السمحة: كالصبر والتأني وترك ممارسة الهوى والمجون العبثي.

٤- وعظ الذات الشاعرة وضَراعتها لله سبحانه وتعالى وانعكاسه على النفس البشرية:

توجّه ابن خاتمة لنصح نفسه وردّعها وإرشادها باستخدام أسلوب التجريد،[١٠١] فابن خاتمة –بوصفه إنساناً– يحتاج لأن يشعر بذاته من خلال البحث عنها حتى يحسّ بها من ناحية، ويكشف عمّا تعانيه وتكابده من ناحية أخرى، وهو استعداد إنساني وعلامة فريدة للفرد، كما قال رولو ماي (Rolo May): "هذا الشعور بالذات، هذا الاستعداد لأن يرى المرء ذاته وكأنه يلحظها من الخارج، هو الصفة المميزة للإنسان"،[١٠٢] "ولعل هذا الشعور بالذات هو ما يجعل الشاعر يتحدّث عن نفسه من خلال ذاتين: ذات تتخذ ضمير (الأنا) الذي يؤول إلى الخطاب؛ ليبثّ في تجربته الشعرية مشاعره العميقة المتعلّقة بمفردات الحياة التي يتعامل معها، ويُشكّل إزاءها مواقف شعورية تنبع من ذاته الإنسانية، في الوقت الذي يحتاج فيه إلى أن يكتنهها داخل العمل الشعري من خلال نظرة فيها داخل نفسه وخارجها فيلجأ لأسلوب التجريد الذي يؤهله لهذه الغاية.[١٠٣] لذا دعا النفس للطُّهر والعفة والنزاهة؛ خوفاً من الله تعالى وخشيته ورهبةً منه، بعد أن رآها تسبح في بحر من ظلمات بخاصّة، والنفس البشريّة بعامّة، بعد أن عميت أبصارها عن طريق الحق والهداية، ورأى الدّهر وملذّاته بصورة الوثن البالي الذي لا ينفع ولا يفيد، وأمرها بالعودة إلى صواب الطريق وجادته وطريق النجاة، ضارعاً لله تعالى؛ طالباً العفو والمغفرة، وهذا الشعور نابع من ثقافته الدينية الإسلامية التي تُعدُّ رافداً أساسيّاً من روافد وصاياه وحِكَمه الشعرية، يقول ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) عن تأثر أهل الأندلس بالدّين الإسلامي، وما يتصل به: "وأمّا أهل الأندلس، فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو الذي يراعونه في التعليم، إلاّ أنّه لما كان القرآن أصل ذلك وأُسُّه ومنبع الدّين والعلوم، جعلوه أصلاً في التعليم"،[١٠٤] فقيمة الطُّهر والنقاء والصفاء من القيم السلوكية الأخلاقية النبيلة المستمدة من الشعور بالخوف من الله تعالى وخشية عقابه، وإن طلب العفو والمغفرة من القيم السلوكية الإسلامية السمحة التي تنظم حياة المسلم، وكان من مناهج التربية والتعليم الإجبارية في الأندلس هو "تعليم القرآن والصلاة والدُّعاء"؛[١٠٥] لذلك نلحظ صورة ابن خاتمة ضارعاً لله خائفاً منه، راجياً صفحه وطالباً عفوه وطامعاً مغفرته في لوحة فنية ذات طقس شعائري تعبدي لله تعالى، قائلاً:[١٠٦]

يَا غائباً عِنْ حِضَارِ القُدْسِ قَدْ حُجِبَتْ   مِنْـــهُ عَـــنِ الحـــقِّ أَبْصـــارٌ وَآذانٌ

وَعَابِـــداً مِـــنْ هَـــواهُ دَهْـــرَهُ وَثنـــاً ... ارجِـــعْ لِنَفْسِـــكَ فَـــالأَهواءُ أوثـــانُ

إِيَّـايَ أعـني فَيـا وَيْحـي وَيـا أَسَـفي ... إِنْ لَمْ يَكُـــنْ لِي عَفْـــوٌ وَغُفْـــرانُ

ولم يتوقف الشاعر عن نهله من مرجعياته الدينية الإسلامية السمحة فحسب، بل استفاد من ثقافته النحوّية في الاعتماد على ترسيخ القيم السلوكية النبيلة في نصّه والإلحاح عليها، مُستخدماً فعل الأمر (ارجعْ) وطاقاته الفنية –وهو نمط اعتاد عليه– وكرره، فلا بُدّ من أن تأتي ثمارها في ثقافته اللغوية النحوية –مثلاً– "بمعنى أن الفكر الذي تشكّل الأدب الأندلسي في إطاره هو القرآن الكريم. أمّا أداته، فهي اللغة العربية"[١٠٧]، وتخلّص الشاعر من أسلوب التجريد؛ ليقرر في السطر الثالث أن طالب فعل الضراعة والرّجاء من الله هو نفسه (الذات الشاعرة)، الذي وقف موقف النادم والحائر والمتأسف على ما فاته من عبادة لله تعالى...إلخ.

ونرصد له –أيضاً– مشهداً حيّاً من مشاهد الضراعة وطلب العفو والصفح والمغفرة، حينما نادى ربه قائلاً: (يا مجيب) (يا إلهي)؛ خوفاً منه وطمعاً برحمته ونيل رضاه، مُشبّهاً خطاياه وسيئاته ومصائبه بالدّاء الفتّاك، ومُشبّهاً العفو والصفح والمغفرة بالدواء الشافي له في حياته، معترفاً بزوال الحياة الدُّنيا وملذاتها التي تجذب أهواء النفس البشريّة متى شاءت، وحيثما رغبت، وأيقن أنها موطن المحن والشقاء والصعاب والهلاك....إلخ، وتخيّل الدنيا بصورة الوحش الكاسر الذي ينقضّ على فريسته نهماً ورغبةً لسدّ جوعه، ويضرع الشاعر لله تعالى؛ طالباً منه ألا يدعه عُرضةً لشماتة الشامتين، متأثراً بأجواء القرآن الكريم الإيمانية وتعاليمه السمحة؛ لأنّ "القرآن الكريم أدب روح يسمو بالإنسان عن عالم المادّة ويأخذ بيده إلى السماء لينظر إلى الأرض نظرة تُريه الحق حقاً والباطل باطلاً،"[١٠٨] فشكّلت ثقافته الدينية الإسلامية في تكوين فكرة وصون سلوكه، وانعكاسا على وصاياه وحكمه للآخرين، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾،[١٠٩] ففي صورة العابد المتبتل، والخائف الزاهد، والنفس الخاشعة، والجوارح الخانعة، وفي طقس شعائري ديني، قال:[١١٠]

يَـــا مُجِيـــبَ المضْـــطَرِّ عِنْـــدَ الـــدُّعاءِ   مِنْـــكَ دَائـــي وفي يَـــدَيْكَ دَوائـــي
جَـــذَّبَتْنِي الـــدُّنيا إِلَيْهـــا بِضَـــبْعي   وَدَعتـــــني لِمِحْنَـــــتِي وَشَـــــقَائي
يَـــا إِلهـــي وَأَنْـــتَ تَعْلَـــمُ حَـــالي   لا تَـــــذَرْني شَمَاتَـــــةَ الأَعْـــــداء

ج- الخوف من الموت وأزمة المصير وتحطّم الأحلام:

تناول ابن خاتمة الشعور بالخوف من الله تعالى، وبالأخص، الخوف من الموت والفناء والزوال الحتميّ بوصفه فِراقاً لمباهج الحياة، وما فيها من مُتع وشهوات وملذات وذكريات وعلاقات، وهو ينطلق من منظور دنيويٍّ ماديٍّ محض يستمد مفاهيمه ومعانيه من تجاربه بالحياة الدُّنيا ومن ثقافته الدينية الإسلامية النبيلة، ويقوم على أساس التشبث بها "والموت بطبيعة الحال هو الحدث الأخير والخطير في حياة كل إنسان"،[١١١] لقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ ﴾.[١١٢]

١- فاجعة الموت الفجائي وصعود سُلّم المنتهى:

إنّ الخوف من محنة الموت كامنٌ في طبيعة النفس البشريّة وهواجسها ونوازعها، لاسيما، النفس الأندلسيّة، خصوصاً، أن بلاد الأندلس أُحيطت بها شتى المخاطر، وحيكت ضدها المكائد في كل جوانب الحياة، ومن المعروف أن الموت مخلوقٌ من مخلوقات الله تعالى، لقوله: ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾.[١١٣] وعن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغُصّته وألمه فقال: {هو قدر ثلاثمائة ضربة بالسيف}.[١١٤]

إنّ الخوف من حِس الفقد وتجرع طعم الفِراق مرتبطان كل الارتباط بالخوف من الله تعالى وخشيته، وإنّ ما يُؤجج مشاعر الخوف من الزوال والموت الحتمي، هو الكبر وتقدّم العمر، فرآه ابن خاتمة علامةً من علامات قُرب نهاية الأجل ومفارقة الحياة بكل ملذاتها، وأوصى النفس بترك المعاصي واقترافها لما نهى عنه الله سبحانه وتعالى، وإنّ ما بعد الموت يأتي الحساب، ومعتمداً على ثقافته الدينية ومطالعة القرآن الكريم وتعاليمه؛ ليدلل على وعظه وإرشاده ونصحه للنفس بقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾،[١١٥] "لقد كان القرآن الكريم

هو الصورة المثالية في مبانيه ومعانيه، ولهذا تأثروا بمعانيه وأفكاره العالية من ناحية، وبأسلوبه وتركيبه البليغ من ناحية أخرى".[١١٦]

ولاحظنا رغبته في انعكاس مفاهيم ثقافته الإسلامية على معانيه وأفكاره وعواطفه الشجية على سلوك النفس؛ وأمّا اقتباسه من آي الذكر الحكيم –هنا– "فإنّه جاء اقتباساً نصيّاً واعياً قصداً لا إشاريّاً؛ لتأكيد معنى أراده؛ وليستعين به"[١١٧] في إقناع النفس بحتمية الموت وأحقيته والخوف منه والعمل لأجله في الدنيا، وانتفاء سرّ الخلود في الحياة، "فقد كانت في عيون الأندلسيين فزع الموت، وفي قلوبهم شبح الخوف الرهيب، حتى تلوّن كل شيء بلون الفناء"[١١٨]، و"ظلّ القرآن الكريم الرابط المتين الذي يربط الشعر العربي بعضه ببعض قديمه وحديثه على مرّ العصور؛ لأنّه المنبع في إمداد الثروة اللغويّة"،[١١٩] تأمّل مثل هذا الإحساس الفجائعي لدى الشاعر في قوله:[١٢٠]

إذا مَـــا دَعَتْـــكَ دَواعِـــي الهَـــوى ... لِمـــا عَنْـــهُ سُـــبْحانَهُ قَـــدْ نَهـــى

فَـــأَيقِنْ بِـــأَنَّ الـــرَّدى فَـــاجِئٌ ... (وأَنَّ إلى رَبِّـــــــكَ المُنْتَهــــــــى)

–وكعادته– عمد إلى استغلال أسلوب الشرط (فعله وجوابه) فنياً؛ لتصوير عِناد النفس البشرية وممارستها السلوكية في الدُّنيا، مقابل صورة الموت ومجيئه بغتة، وقبضة روح النفس البشرية من حيث لا تدري إلى أين تمضي فيها، وكثيراً" ما كان الموت يُفاجئ النّاس في نقلة نوعية حادّة –جماعات كانوا أَم فُرادى– وهم في قمة انغماسهم الحياة ومسرّاتها كما لو كانت النهاية اغتيالاً وغدراً، وإن الإحساس المفجع بنهاية قريبة للحياة كان يُلازم الإنسان الأندلسي في حلّه وترحاله، فهو ظاهرة إنسانية عامّة، وللنفس البشرية ألوان متعددة من الأشجان والخواطر والمواقف المتّصلة بمواجهة المصير النهائي، وهم يتعلّقون بأهداف الحياة المولية"،[١٢١] ومنهم شاعرنا الذي انفرد بنغمة فريدة في النظر للخوف من الموت – عند حديثه عن الموت الفُجائي ذي الطقس الشعوري الفجائعي، الذي يستوي أمامه كل شيء، ولا يَردُّه رادّ.

٢- فاجعة الموت وهلاك المتاع وزينة الدُّنيا:

وفي مقابل الشعور بالخوف المتأصّل في نفس الشاعر -من الموت والزوال الحتمي الذي لا مفر منه- أوصى النفس بالبذل والجود والعطاء والسخاء والكرم في الحياة العامّة -فهذه القيم الإنسانية النبيلة- قيم أخلاقية يتواصى بها النّاس، فلا يجوز التفريط فيها، ولا التهاون بها؛ لأنّ التقصير في هذا الحق يُلحق بالنفس أذىً مدى الدّهر، والشاعر امتدح هذه القيم وقت الحاجة والشدة والرّخاء، حين يشحّ الكرم والبذل والعطاء والسخاء بين أفراد المجتمع، وارتبط البذل -بمسمياته جميعًا-عند شاعرنا- بموقفٍ فكري مؤصل مُؤدّاه أن الإنسان يجب أن يبذل ما لديه في وجوه الخير؛ لأنّه لا يعلم ما سيحدث فيما عنده من أموال وثروات، فلربّما صار ما له بعد حياته نَهْباً مُقسّماً بين الوارثين يعيثون فيه. وفي ضوء هذا الفهم خاطب الشاعر النفس طالباً منها البذل والجود على النّاس أجمعين؛ لأنها ستُفني لا محالة، ويبقى ذكرها حسناً بين النّاس، لاسيما، أن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ضَمِن الجزاء والثواب الحسن لمن يبذل ماله وينفقه في وجوه الخير، فالله هو المعطي، "إذا كان انفتاح الحياة بالمباهج قد هيأ للشعراء وتراً ضاحكاً، فإن صدمة الموت قد حرّكت لديهم وتراً حزيناً متأملاً"،[١٢٢] وإن ما ينفقه المرء هو من مال الله تعالى الذي لا ينفد، وفي تعميق أفكاره ورؤيته عمد إلى استخدام أسلوب الشرط (فعله وجوابه)، وفعل الأمر (أنفقْ) في تأكيد نصحه وإرشاده وترسيخه في ذهن السامع، فقال:[١٢٣]

إذا وَجَــدْتَ فَجُــدْ لِلنّــاسِ قَاطِبَــةً	فَالحَــالُ تَفْـنَى وَيَبْقَـى الـذِّكْرُ أَحْـوَالا
لا ســيَّما وَرَســولُ اللهِ ضَــامِنُهُ	أَنْفِـقْ وَلا تَخْـشَ مِـنْ ذِي العَـرْشِ إِقْـلالا

ومن عادته تكرار الوصية والحكمة في أكثر من أسلوب؛ لترسيخ الخوف من الله وخشيته الذي اقترن -كثيراً- بإظهار الخوف من الموت والمصير الحتمي الذي يؤرق النفس البشرية، الذي ينتظرها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾[١٢٤] موصّيا إياها بأخذ العظة والعبرة والخوف من القادم، في المقابل أوصاها بالبذل

والعطاء والكرم والسخاء والإنفاق على وجوه الخير؛ لأن المال –في تصوّره- كحال ابن السبيل في الحياة، فأفضل الإنفاق –في تصوّره- يكمن في إنفاق النفس على ابن السبيل الذي انقطعت به السُبل، ونفدت جعبته من المدد، فطالبها بتجهيز رحله ومتاعه، وما يلزمه في سفره من شيء. إن مثل هذا الإنفاق يعد قيمة سلوكية نبيلة حضّ الشاعر عليها ودعا النفس لفعلها، وإلاّ لا فائدة من تخزين الأموال والثروات وتكديسها، وفي نهاية المطاف مصيرها الزوال كما صاحبها، ومستفيداً من معاني الأفعال التالية: (أَبْذُل، قِري، لا تُبال، نأي) ودلالاتها في تثبيت مقاصده المعنوية والفكرية والنفسية وترسيخها في ذهن سامعه، وقال تعالى: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[١٢٥] وقوله تعالى ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ .... ﴾،[١٢٦] وقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾،[١٢٧] فقال:[١٢٨]

أُبْــذَلِ المــالَ لا تُبــالِ بِبَذْلِــهْ   قَبْــلَ تَرْحالِــهِ ونــأْيِ مَحَلِّــهْ
إِنَّمــا المــالُ عِنْــدَكَ ابــنُ سَــبيلٍ   وَقِــرى ابــنِ السَّــبيلِ تَجْهِيــزُ رَحْلِــهْ

د- الخوف من سلطة خليفة الله على الأرض (السلطان):

-وكما أسلفت في مستهل هذا البحث- أن سلطة الحاكم أو السلطان شكّلت فرعاً آخر من فروع الطرف الأول من أطراف العلاقة التقابلية الأولى، وهي السلطة العُليا على الأرض فقط، ضمن القدر الذي استمدته من الذات الإلهيّة في عملها ووظيفتها، وهي خلافة الله على الأرض –كما قُلتُ سابقاً، وقد مارست سياستها على النفس؛ ممّا أحدث شعوراً بالخوف والرهبة في خوالج النفس وبواطنها حالة اقترافها المعاصي والأخطاء والأذى، ونال الخوف من السلطان (الحاكم) إشارة واضحة، فكان لكل حاكم طريقة في إدارة دفة الحكم

والسلطة، وقد حذّر شاعرنا من الاقتراب من السلاطين وقت اضطراب أحوالهم وتقلّب زمانهم، أي بمعنى آخر، شمل الخوفُ من السلطان أصحاب السلطان أنفسهم في حال عزلهم أو تغيّر أحوالهم وتبدّلها.

وفي الوقت الذي بثّ فيه الشاعر مشاعر الخوف من نفرة السلاطين عند اضطرابهم النفسي ومحذراً النفس بعدم الاقتراب منهم، فإنّه دعا للتّقرب إليهم حال استقرار نفوسهم وملاحظة جميل سلوكهم وصفاء أذهانهم وراحة بالهم، ورآهم بصورة البحر الواسع الذي يغدق على رواده ومُريديه من عطائه وكرمه وجوده، مقابل البعد عنه عند هيجانه وتلاطم أمواجه وهبوب أعاصيره واضطرابه، ودلّل على تعميق هذه الفكرة التي يندى منها مشاعر الخوف، وبعد زوال الشعور بالخوف دعا للتقرّب من السلاطين شاحذاً عمق الفكرة من فعلي الأمر (خفِ، واحذرْ) ومعناهما في السياق العام، فقال:[١٢٩]

خَـفِ السَّـلاطينَ وَاحْـذَرْ أَنْ تُلابِسَـهُم   مَـــا دامَ أَمْـــرُهُم في المِلْـــكِ مُضْـــطَرِبا

إِنَّ المِلُـــــوكَ بِحَـــــارٌ في خَلائِقِهِــــــم   وَمَــنْ سَمَــا البَحــرَ، في أَهوالِـهِ، عَطِبــا

وقد تأثر شاعرنا بصورة سيف الدولة الحمداني (ت٩١٩هـ) التي رسمها له المتنبي في قلعة الحدث الحمراء وانتصاره على الروم، فقال:[١٣٠]

هُوَ الْبَحْرُ غُصْ فيهِ إِذَا كانَ ساكِنًا على الدُّرِ   وَاْحْــــــذَرْهُ إذا كــــــانَ مُــــــزْبِدا

واصفاً كرم سيف الدولة الحمداني، إنه نفّاع ضرّار، فمن جاءه مسالماً ظفر بإحسانه، ومن جاءه محارباً عرّض نفسه للتهلكة، مثله في البحر: إذا سكن أمكن ركوبه والغوص فيه من الجواهر، وإن جاش وقذف الزّبد وجب الحذر منه.

ثانياً– الإساءة/ الإحسان:

الإحسان خلقٌ إسلاميٌّ نبيل و"إذا تتبعنا كلمة (الإحسان) ومفرداتها في القرآن الكريم نجدها تتضمن فعل (الحُسن والأحسن) في القول والعمل. أي أنها تدور حول صلاح الإنسان وفلاحه في ذاته ومجتمعه، وهو امتداح المحسنين، ودعوة إلى الإحسان، ويدخل في شمول ذلك المحسنات أيضاً؛ لأنّ الخطاب في القرآن الكريم يشمل الذّكر والأنثى، وهو خطاب للنّاس

أجمعين، وإنّ الإنسان عندما يتحرّى الأحسن في كل ما يصدر عنه من قول أو فعل، فإنّ عاقبة ذلك تكون خيراً على نفسه وعلى مجتمعه. وتحرّي الأحسن يكون في عرض ما يرغب في القيام به من قولٍ أو عملٍ على مرضاة الله؛ فإن تحقق له ذلك فهو حقاً من المحسنين، والإحسان هو ضد الإساءة. والفعل الحسن، أو الشيء الحسن، هو ضد الفعل السيئ، أو ضد الشيء القبيح".[١٣١]

أوصى ابن خاتمة النفس البشرية بممارسة قيمة سلوكية إنسانية إسلامية نبيلة، وهي البُعد عن الإساءة إلى الآخرين وتقديم الإحسان إليهم؛ لخوفه المستمر الذي لا ينقطع عن ممارسة فعل الإساءة وتقديم الأذى للآخرين، لِما لهذه الآفة الاجتماعية من آثار سلبيّة على البيئة الأندلسية ومجتمعها المترامي الأطراف "فقد تميّزت غرناطة بروح عربية إسلامية لا نجدها في مدن الأندلس على امتداد عصورها".[١٣٢]

أ- الصديق الشرير والصديق الشفيق ونسيج المجتمع الأندلسي:

دعا ابن خاتمة النفس بنبذ سلوك المسيء، والعمل على إصلاح ذات البين في مجتمعه، ومسايرة الخصم المسيء لها ومُداراته عند وقوع خلافٍ ما وافتراق معين، وقد شبّه عودة المسيء لصديقه المسامح بالخلّ الشفيق، الذي يمتلك الشفقة والرأفة المتبادلة بينهما؛ لخشيته من صدى وقع إساءته وإطالتها في ظل الحياة الفانية بينهما، وإن هذه الحياة لا تستحق إدامة الإساءة وطول الخِصام، وإنّ هذه القيم السلوكية الإنسانية السمحة وُلدتْ من رحم البيئة الأندلسيّة؛ لتكون مظهراً من مظاهر التعاون على ظروف الحياة وصعوبتها، فالشاعر حرص على نقاء مجتمعه الأندلسي من انتشار الآفات الاجتماعية، وخوفه على مصير ساكنيه؛ لتظلّ شبكة العلاقات الإنسانية نقية ومُعافاة؛ ولأنّ العداوة والبغضاء والشحناء -كما أسلفت- من أشدّ الأمراض الاجتماعية فتكاً بالمجتمع، وتدميراً لبنيته الاجتماعية، وتنبّه شاعرنا إلى خطورتها، وبذَلَ جهوداً لمكافحتها والترويع منها والتخويف من مخاطرها؛ زاجراً الشخص الذي يجهل استخدام أُسلوب المداراة أو المسايرة التربوي -كقيمة إنسانية سلوكية نبيلة- الذي يجلب الاستقرار النفسي على المجتمع المحلي، واستخدام فعل الأمر (دارِه)؛

لترسيخ القيم السمحة في أذهان الآخرين ونصحهم وإرشادهم، ومشبّهاً الشخص المسيء بالشيء الرديء الهالك في الأرض الذي لا ينفع نفسه، الذي يعيثُ فساداً في الأرض تارة، وينشره بين النّاس تارة أخرى. بينما رسم صورة للصديق الوفي الذي تمثّل له بصورة السوي، الذي يسعى في إعمار الأرض وتنميتها، وغرس ثمار المحبة والإحسان للآخرين، و "للإحسان آثاره الطيبة في رأب الصدع، ولحم الجراح، وغسل الأسى على التصافي والتسامي إلى مكارم الأخلاق"،[١٣٣] لقوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾،[١٣٤] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾،[١٣٥] قائلاً:[١٣٦]

عَـــدوّكَ دَارِهِ مــــا اسْـــطَعْتَ حَـــتَّى ... يَعــــودَ لَـــديْكَ كالخِـــلِّ الشَّـــفيقِ

فَمَـــا في الأرضِ أَرْدَى مـــن عَـــدُوٍّ ... وَلا في الأَرضِ أَجْـــدَى مـــن صَـــديقِ

وفي المثل العربي: "المداراةُ قِوامُ المعاشرةِ وملاكُ المعاشرةِ"[١٣٧] وأدرك ابن خاتمة الأسباب التي تؤدي إلى تفسّخ بنية المجتمع الأندلسي، وتُخلخل نسيجه الاجتماعي، فمن مشاعر خوفه من هذه الممارسات السلوكية السيئة وأسبابها بثّ في نفوس مجتمعه قيماً سلوكية عُليا تؤدي المحافظة عليها إلى استقرار شبكة العلاقات الاجتماعية؛ ليغدو مجتمعه قوياً متماسكاً، و"هذا الإحساس مطلوب تحقيقه في الحياة الدُّنيا؛ لأنَّ مدار التعامل والتعايش مع النّاس هو في هذه الحياة الدُّنيا، وأن المحسن سيُلاقي جزاء عمله فيها، كما ستكون حصيلة عمله يوم القيامة خيراً، لقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾.[١٣٨]

ووعى الشاعر أهمية الإغضاء عن السُّفهاء، وما يترتب على هذا السلوك من قَطْع الطريق على من يريد تفسخ العلاقات الإنسانية بين الناس، وأوصى النفس البشرية الالتزام بالأخلاق الحميدة، معتمداً على إيحاءات فعل الأمر (غَمِّضْ) ودلالاتها في توصيته وإرشاده

ونصحه بالإقلاع عن مخالطة السُّفهاء والابتعاد عن معاملتهم، وحرص على محاربتهم ومقاطعة أفعالهم وسلوكياتهم السلبية؛ لأنّ البُعد عنهم وترْك مُجاملتهم يؤديان إلى خير النفس البشرية ونَفْعها، والبُعد عن جلب الشرور والسيئات، هذه هي صورة الإنسان السفيه الذي يجلب الإساءة لنفسه ولمجتمعه، التي دعت الشاعر إلى الإحساس بالقلق والخوف من انتشارها في المجتمع الأندلسي.

وفي مشهد آخر، أظهر الشاعر صورة الإنسان السوي من جهة، وصورة المقابلة للإنسان اللئيم من جهة أخرى، معتمداً على فعل الأمر (أجْز)؛ لترسيخ وصيته بمعاملة الإنسان اللئيم معاملة حسنة، ونصحه وإرشاده واستبدال إساءته للآخر بإحسان وطيب؛ ليأمن بوائقه وشروره وانتشارها في مجتمعه.

ويكون الإحسان بالسلوك الحسن، وفيه "يتبين السلوك ويبرز في الاستقامة والعمل الصالح؛ لأنَّ من يكون مستقيماً في تصرفاته وأعماله يكون سلوكه دليلاً على حُسن سيرته؛ لأن السلوك هو تُرجمان الإنسان"،[١٣٩] ممّا عناهم الله تعالى بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾،[١٤٠] وفي موضع آخر قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾.[١٤١]

وقيل عن فِعل الاستقامة "إنّها عين الكرامة؛ لأن من يتصف بها يكون موضع ثقة، وتقدير واحترام، وكرامته موفورة عند النّاس. ومن كان سلوكه سيئاً، فإن عمله يكون سيئاً أيضاً"،[١٤٢] لذلك نجد القرآن الكريم يحضّ على العمل الصالح ويجزي عليه في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.[١٤٣]

وعاد الشاعر –مرة ثالثة– داعياً للحذر والانتباه الشديد من تبعات سلوك السفيه وإفرازاتها ونتائجها وتداعياتها وآثارها السلوكية السلبية على الآخر، مُستفيداً من تجاربه وخبراته في الحياة، وإن أصل الجروح ونزيفها ينبعان من مكان الجرح الأساس وموطنه، ومحذراً

من هذه الفئة الضالة وسلوكها، واستعان بفعل الأمر (احذرْ) الدال على خطورة هذا الصنف من البشر الذي يجلب على المجتمع الشرور والمصائب، حيث يقول:[١٤٤]

غَمِّــضْ عَــنْ العَــوراءِ تَــأْمَنْ عَارَهَــا   واجْـــزِ اللّئـــيمَ جَـــزاءَ ذِي كَـــرَمِ

وَاحْـــذَرْ لِقَـــاحَ قَبيحـــةٍ بِمِثالِهَـــا   إِنَّ الكُلُـــومِ نَتَـــائِجُ الكَلِـــمِ

إنّ انخفاض منسوب القيم النبيلة في نفوس أبناء المجتمع ما يزال سبباً رئيساً في معاناة البشرية جمعاء، فكثيراً ما اكتوى المجتمع بنيران هؤلاء الأصدقاء الذين لم يحافظوا على هذه القيمة الخُلقية الساميّة، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.[١٤٥]

وقد شكى ابن خاتمة من انتشار مرضٍ اجتماعي خطير يمس القيم السلوكية النبيلة، وهو العَتب، مازِجاً شكواه وعتبه ولومه بمشاعر الخوف والقلق من هذه الآفة الاجتماعية وانتشارها بين الأصدقاء أو الأخِلّاء في مجتمعه؛ ولأن العتب يسيء إلى الآخر، ويُحطِّم شبكة العلاقات الاجتماعية بين النّاس، ويأتي عليها بالويلات والمشاكل والصعاب والخلافات والخصومات والنزاعات أوصى النفس البشرية بالإقلاع عن معاتبة الصديق (الخِلّ) عند اقترافه الذنوب والآثام والمعاصي؛ لأن نار العتب لظى، ورُبّما لا يُجدي –أحياناً– العتب واللوم للآخر، وقد يتجاوز المرء عن صديقه وخليله الذي يُعاتبه ويلومه بكثرة، حينما لا يستجيب لعتبه ولومه كثيراً؛ لأنَّ العفو عند المقدرة واجبٌ، والإحسان صفة إيمانية وقيمة سلوكية سامية، فقد أوصى الشاعر بهما، وإلاّ سوف يجلب العتب –طوال الدهر– الإساءة والأذى والشرور....الخ، وتزداد شروره وآثامه وخرابه لمجتمعه. وقد رسم شاعرنا صورتين متقابلتين مفادهما استحالة جمع ضدين معاً في آنٍ واحد: العتب على الخليل من جهة، والعفو أو الصفح أو التسامح من جهة أخرى؛ وبالتالي يتعذر على الصديق الوفي العمل الحسن، قائلاً:[١٤٦]

إنْ تُعْتِـبَ الخِـلَّ في ذَنـبٍ جَـزَاكَ قِلـىً   أو تُعْفِــهِ يَبْــقَ طُــوْلَ الــدهرِ يُؤْذِيكــا

فـإنْ تُطِـقْ تجمـع الضِّـدَّيْنِ في نَسَـقٍ   فَرُبَّمَـا قَـدْ تَـرى خِـلاًّ يُواتيكـا

ب- الحسود والمعاملة ليست بالمثل والتحذير من أبناء الزمان المأزوم:

أوصى شاعرنا النفس البشرية بالإقلاع عن الإساءة للحسود وذمه سرّاً أو جهراً؛ لأن الحسد مرض اجتماعي، وإن انتشاره بين الناس يؤدي إلى تفسخ الروابط الاجتماعية المتينة، ويجعل المجتمع عُرضةً للهلاك والمصاعب والنوائب، فدعا شاعرنا الى معاملة الحسود (المسيء) بالحُسنى والإقلاع عن التشهير به وقدحه وقتل شخصيته ومعاملته بالمثل، مستعيناً بأسلوب الشرط: فعله وجوابه (إنْ تَذُمَّ الحَسُودَ ذَمَّكَ جَهْراً)، (أوْ تَنَلْ مِنْهُ نَالَ مِنْكَ وَغيّا)، (فإذا مَا سَمَوْتَهُ بِكمالٍ نِلْتَ منه وَلَمْ يَنَلْ مِنكَ شَيّا)، وأوصى كذلك النفس البشرية -بشكل مستمر- بالترفع عن ذم الحسود وقدحه والاحتكام إلى العقل لا إلى العاطفة والاندفاع، فإن إحسان النفس البشرية للحسود يظهر لنّا السموّ بالنفس المتعقلة والترفع عن المعاملة بالمثل، والبعد عن سلوك المكر والدَّهاء، وإن ملاطفته ومسايرته واستعطافه واستمالته واستجلابه من قيم النفس البشرية المحسنة وشِيمها، كما في قوله:[١٤٧]

إنْ تَـذُمَّ الحَسُـودَ ذَمَّـكَ جَهْـراً   أوْ تَنَـلْ مِنْـهُ نَـالَ مِنْـكَ وَغيّـا
فـإذا مَـا سَمَوْتَـهُ بِكمَـالٍ   نِلْـتَ مِنْـهُ وَلَمْ يَنَـلْ مِنْـكَ شَـيّا

وفي إشارته للخوف من إعراض الدُّنيا وأبنائها وإساءاتها للنفس البشريّة وصدودها البشع في وجوه النفوس، فإنه رأى الدُّنيا وإعراضها وصدودها وخوفه من أحوالها وتقلّباتها بصورة الإنسان الآدمي الذي يعرض عن رفاقه مانعاً الخير والمنفعة عنهم؛ نتيجة صدوده ورفضه ونفوره منهم. وفي المقابل أوصى ابن خاتمة النفس البشرية بالإحسان والحذر الشديد من أبناء زمان هذه الدُّنيا والاحتراس من شرورهم وأذاهم، والإقلاع عن معاملتهم بمثل ما تُعامل الدّنيا ساكنيها ومواطنيها؛ لأن سوء المعاملة والبُعد عن الإحسان سيزيد الإعراض والصدود والنفور والرفض؛ لذلك شبّه الدّنيا الواسعة بالأُم الرؤوم الحانية على بنيها، بصورة الأتباع والأنصار، فجاء تحذيره وخوفه مشفوعاً بأسلوب الشرط: فعله وجوابه (إن أعرضتْ

دُنياكِ عنك.... فأحذر بنيها واحترز من شرهم)؛ ليدل على خوفه الشاعر الذي ينسحب على النفوس البشرية من اضطراب الدنيا واتباع بَنيها لها، فقال:[148]

إن أَعْرَضَتْ دُنياكَ عَنْكَ بِوَجهها ... وَغَدَتْ وَمِنْهَا في رِضَاكَ نِزاعُ
فاحْذَرْ بَنِيْها واحترِزْ مِنْ شَرِّهِم ... إِنَّ البَنِيْنَ لأُمِّهِمْ أَتْبَاعُ

ثالثاً- الكلام/ الصمت

أ- إطالة اللسان وحَبسه:

أوصى ابن خاتمة النفس البشرية بحفظ لسانها وملفوظاتها عند الكلام، خصوصاً، لسانها الذي يجلب الشرور والآثام والخطايا، وحذّرها من ممارسة سلوك النميمة وقذف أعراض الناس؛ لخوفه من الله تعالى أولاً، ومن انتشار الكلام الضّار عند إطالة اللّسان بكل بذيء وشرّ من جهة، حاثّاً على الصمت الذي لا يضرّ الناس، ولا يذكر عيوبهم من جهة أخرى، فرأى صورة لسان المرء الشرير بالسجين الذي يقبع في غياهب السجن ودياجيره وردهات زنزاناته المعتمة ويقنع بمصيره ولا يحتج عليه من جهة، وكحال لسان المرء في أسفل جوفه المظلم من جهة أخرى، قائلاً: (لسانك اسْجُن)، (ولتُطِلْ حبسهُ) طالما يذكر عيوب النّاس ويقذف أعراضهم، مُفضّلاً الصمت على الكلام الضّار؛ لأن الفروق معروفة والمقارنات واضحة بين الكلام الضارّ الذي يخشى منه ويخاف انتشاره بين الناس، والصمت الذي يُحمد في مواطن كثيرة، فقال:[149]

لِسانَكَ اسْجُنْ وَلْتُطِلْ حَبْسَهُ ... إن شِئْتَ إكراماً وتَصْوِينَا
لَوْ لَمْ يَكُنْ لِلسِّجنِ أَهْلاً لَمَا ... غَدا بِقَعْرِ الفَمِ مَسْجونا

ب- حِدّة اللسان ومقتل النفس

التقى ابن خاتمة مع الشاعر العباسي ابن المعتز (ت٢٩٦هـ) في نفس الاتجاه والفكرة في تحذيرهما من حدة اللسان ومخاطرها وسلبياتها على النفس الشاعرة بخاصّة، والمجتمع المحلي بعامّة، فقال:[150]

يَـــــا رَبِّ أَلسِـــــنَةٍ كالسُّـــــيوفِ تُقَطِّـــــعُ أَعنـــــاقَ أَصـــــحابِها
وَكَـــمْ دُهِـــيَ المـــرءُ مـــن نَفْسِـــهِ، فـــــلا تــــــأكُلَنَ بأنيابِهـــــا

وفي المثل العربي القديم: "مقتل الرَّجلِ بَيْنَ فَكَّيه"،[١٥١] ومن قول بعض العرب لرجل يَعِظُه -كما يوصي ابن خاتمة النفس البشرية بالصمت والامتناع عن حدة اللسان بالكلام الضّار: "إيّاكَ أن يضربَ لِسانُكَ عُنَقَكَ".[١٥٢] وابن خاتمة من الشعراء الأندلسيين الذين استفادوا من التراث الشعري العربي القديم وتأثر به في معانيه وألفاظه، فالشعراء في الأندلس قسموا "الطريق إلى تعلّم الكتابة الأدبية إلى ثلاث شعب، منها: أن يصرف هَمَّهُ إلى حفظ القرآن الكريم، وكثيرٍ من الأخبار النبوية، وعدّة من دواوين فحول الشعراء، وممن غلب على شعره الإجادة في المعاني والألفاظ، ثم يأخذ في الاقتباس من هذه الثلاثة: أعني القرآن، والأخبار النبوية، والأشعار، فيقوم ويقع، ويخطئ، ويصيب، ويضلُّ ويهتدي، حتى يستقيم على طريقة يفتتحها لنفسه".[١٥٣]

وفي موضع آخر، أوصى ابن خاتمة النفس البشرية بالكلام النافع وحفظ لسانها والحرص من حدته؛ خوفاً من بوائقه وشروره، في المقابل نجد الصمت بديلاً للكلام الضّار في بعض المواطن، فشبّه لسان المرء بشكله وسطوته ونصّله وحدّته وجبروته وظلمه للآخر بالسيف البتّار القاطع الحادّ، بل أسطى وأقوى وأحدّ من السيف في سطوته وحدّته وجبروته وظلمه للآخر، وأوصى النفس البشرية – مرة أخرى- بحفظ لسانها وصونه كما يُحفظ السيف ويُصان في غمده، وعندما يحفظه صاحبه في غمده يأمن شرّه وظلمه وبتره ونصّله وحدّته وجبروته وسطوته، زاجراً حدّة اللسان ومستعيناً بفعل الأمر: (فأغمدْ) في تأكيد معانيه وتقويتها، فقال:[١٥٤]

لِسَـــــانُكَ كالسَّـــــيفِ في شَـــــكْلِهِ وَأَعْـــدَى مِـــنَ السَّـــيفِ في سَـــطْوَتِهْ
فَأَغْمِــــدْ ظُبَــــاهُ فَقَــــدْ يُتَّقــــى عَلـى حَامِـلِ السَّـيفِ مـن شَـفْرَتِهِ

رابعاً- الغربة/ الإقامة:

وقف الجاحظ (ت٢٥٥هـ) في بعض مؤلفاته على حُبِّ الأوطان،[١٥٥] وهو من الغرائز الفطرية عند النفس البشريّة، وقابل بين القتل ورفض النزوح عن الدِّيار والأوطان والأهل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا﴾.[١٥٦]

ولقد "قُدر على الأندلسيين أن يعيشوا محنة اغتراب مريرة بعد انتثار عقد الأندلس وسقوط معظم مدنه في أيدي النصارى، فقوّض كثيراً من الأندلسيين خيامهم، ورحلوا عن موطنهم، وتركوا معاهدهم وديارهم، وفارقوا أهلهم وأحبابهم إلى غير رجعة، وتقاذفتهم البلاد والفلوات، وذاقوا مرارة التشتت والضياع، فألقى بعضهم عصا التسيار في المغرب ورحل بعضهم إلى المشرق، وكانت تجربة الغربة عميقة في نفوسهم، فجرى على لسانهم شعر كثير يُصوِّر هذه النزعة، ويصف ما كان يضطرم في نفوسهم من مشاعر الشوق والحنين إلى ديارهم".[١٥٧]

والغربة نقيض الإقامة والاستقرار والطمأنينة، وتتولد لدينا وهي "عاطفة تستولي على المرء فيعيش في قلق وكآبة لشعوره بالبُعد عمّا يهوى أو يرغب فيه".[١٥٨]

أ- وحش الغربة الكاسر ونفثة مصدور ولوعة مفجوع:

نَقَلَ ابن خاتمة إحساس الخوف والفزع والرهبة للنفس البشريّة بأمانة وصدق وحذّرها من ألم الحرقة النابع من الغربة الأبدية عن الوطن الأُمّ بكل ذهول واستغراب، ممّا آلت إليه الحال، ودعاها للإقامة الدائمة والاستقرار في وطنها؛ لِما تُسببه الغربة الأبدية والاغتراب الطويل من الشعور بالإذلال والانكسار النفسي والعاطفي والشعوري، مهما كانت قرارات النفس البشرية ورغباتها وطموحاتها وآمالها، وأكّد على معانيه ومقاصده -المتقدّمة- بقدرة الله تعالى على هلاك نملة ذات البدن الضعيف حينما يودّ خلق جناحين لها تطير بهما طيلة حياتها، فهالكها يكمن في طيرانها؛ إذ لم تُخلق بجناحين، واستفاد شاعرنا من الطاقات الإيحائية للفعل الأمر (الزَمْ) الطلبي من نصح وإرشاد؛ لترسيخ مشاعر الخوف والفزع والرهبة من الغربة الأبدية والسفر الطويل والاغتراب البعيد، مُفْضِلاً البقاء في الوطن الأُمُّ؛ خوفاً من مخاطر الاغتراب وحرصاً منه على مشاعر النفس البشريّة وكرامتها، فقال باثّاً همومه ولواعجه:[١٥٩]

الِـــزَمْ مَكَانَـــكَ فَـــالتَّغَرُّبُ ذِلَّـــةٌ   لَــوْ لَمْ تَنَــلْ غَيْــرَ القَــرَارِ نَجَاحَــا
فَـــإِذا أرادَ اللهُ مَهْلِــــكَ نَمْلَــــةٍ   هَيَّــا لَهَــا كَيْمــا تَطْــيَرَ جَنَاحَــا!

ب- الحنين للمثوى وفجيعة التحوّل:

أكّد ابن خاتمة على مضمون الحنين للمثوى وتحذيره من مخاطر الغربة الطويلة والسفر البعيد والاغتراب المذل وفجيعة التحوّل وآثارها السلبية على مشاعر النفس والخوف والرهبة والفزع منها. إنّ "الحنينَ بابٌ قديمٌ في الشعر العربي، ولكن الأندلسيين ضربوا فيه بسهمٍ وافرٍ، وصدوراً فيما نظموه فيه من عاطفة صادقة وإحساس مُرهف ونفوس مهذبة تجرّعت مرارة الغربة، فكان حنينهم إلى الأندلس من أصدق ما قيل في هذا الباب، وأبلغه على مرّ العصور"،[١٦٠] وإنّ حنين ابن خاتمة حنيناً واقعياً لمدينته وأهله وعشيرته.

إنّ في أعماق ابن خاتمة نزعة وطنية قوية ومتجذرة نحو التمسك بالهوية الأندلسيّة وممارسة حق الوجود في بلاده، وهذا ما تفصح عنه لغته المستعملة في نصوصه، ثم في لهفة يتأسف على الاغتراب الذي مضى دون طائل نادماً وعازماً على التمسك بوطنيته، وقد أوصى النفس بلزوم الوطن الأُمّ، فالوطن هو مثوى النفس وعزّها، وراحة روحها وجسدها، فحذر من تركه والبعد عنه؛ لأنّ عِزّ النفس وكرامتها وشموخها يكمن في وطنها الأم من جهة (الغربة النفسية)، وغربتها المكانية من جهة أخرى، قلما يلتقيان أو يتفقان معاً، وشبّه شاعرنا صورة العِزّ والشموخ والفخار التي ينعم المقيم بوطنه كصورة الشّعر فوق الرأس عِزّاً وشموخاً وفخاراً، وفي حالة زوال الشّعر عن الرأس سيصبح الرأس مُلقى في التراب مُهاناً؛ لهوانه وذلّه وانكساره، كما حال المغترب الذي يُهان في سفره الطويل واغترابه البعيد، وكأنه يستذكر شريط ذكرياته وخبراته وتجاربه الماضوية في السفر والغربة.

واستفاد من دلالات فعل الأمر (فاحْذرْ) في تحذيره من ألم الغربة النفسية والمكانية وحرقتهما وحنينه لمثواه وتفجعه من تحوّلات الاغتراب وخوفه وفزعه وهلعه من الابتعاد عن الوطن، فقال:[١٦١]

مَثْـــوَاكَ عِـــزُّكَ فَاحْـــذَرْ أَنْ تُفَارِقَـــهُ   فَعِـــزَّهٌ واغْـــتِرابٌ قَلمَـــا اتَّفَقَـــا

أَمــا تَـرى الشَّـعرَ فَـوْقَ الـرَّأسِ مُحْتَرَمـاً فَـإِنْ يَـزُلْ عَنْـهُ أضْحَى في الـتُّراب لِقِـى

وتبيّن أن الغربة في رؤية شاعرنا هي مسخ للإنسانية، وتعد استبدالاً للهوية والعزّة والكرامة والانتماء من جهة، وبثّ شاعرنا مشاعر الخوف من انتماء المغترب إلى هوية الخزي والذّل والتشرّد والتشتت واللجوء والنزوح، وإن الغربة –في نظره- تحويل أبناء الوطن إلى أبناء السبيل "وأحسن الأشياء التي تعرف، ويتأثر لها، أو يتأثر لها إذا عرفت، هي الأشياء التي فطرت النفوس على استلذاذها، أو التألم منها، أو ما وجد فيه من اللذة والألم، كالذكريات للعهود المنصرمة التي توجد النفوس، تلتذ بتخيلها وذِكرها، وتتألم من تقضيها وانصرافها".[١٦٢]

الخاتمة:

إنّ الخوف –وما يتعلّق به من مفاهيم ومصطلحات- شعور انفعالي إنساني- رافق النفس البشرية ولازمها في كل أوقاتها وأماكنها، وشمل الملائكة والرّسل والأنبياء الكرام والعلماء الأتقياء والنّاس أجمعين، أضف إلى ذلك تغيّر استجابات جميع المخلوقات لمثيرات الخوف واختلافها وفقاً لأعمارهم وثقافاتهم وعلومهم ومعارفهم وأوساطهم البيئية.

إنّ الوصية والحكمة الشعرية خلاصة تجارب الإنسان وخبراته الطويلة في الحياة، وهما آخر ما يقدّمه الإنسان لنفسه أولاً، ولأبناء مجتمعه وبيئته في سنوات حياته ودنوّ أجله وانقضاء عمره، بعد أن عاين الحياة واختبرها بكل ما احتوته من تغيّرات وتقلّبات وتحوّلات، وقد قام شعر ابن خاتمة بمهمة سامية اختصت بتهذيب النفس وتطهيرها وتدريبها على ممارسة القيم السلوكية النبيلة والأخلاق الحميدة، التي تُشكِّل الشخصية المثالية في المجتمع الأندلسي قاطبةً، وعُدّ شعره مادّة التأديب والتهذيب، وبقي محافظاً على هذه المهمة التي نبعت من رؤيتين: الأولى- عربية، والأخرى- إسلامية.

وأجاب البحث الحالي عن سؤال مفاده: هل شكّل الخوف –وما يتّصل به من مفاهيم ومصطلحات–باتجاهاته ومظاهره وبواعثه- رؤية ابن خاتمة وفكره وشخصيته وثقافته وتجربته الشعرية والشعورية؛ ممّا دعاه إلى التوجّه للنفس ونصحها وإرشادها وتصويب أوضاعها وسلوكها وتوجيهها صوب ممارسة القيم الإنسانية السلوكية النبيلة التي نصّ عليها إسلامنا

الحنيف، وجاءت الإجابة عنه من خلال الجانب التطبيقي لهذه الدراسة- وممّا يجدر ذكره أن وصاياه وحكمه الشعرية لا تزيد عن خمسة أبيات، إذ ليست الجودة الفنية في الشعر مقترنة بطول القصيدة وبعدد أبياتها: "فخير الكلام ما قلّ ودلّ"، وتوصّل الباحث إلى أن الإحساس بالخوف لدى شاعرنا احتكم إلى علاقات تقابلية ثنائية مع الآخر، فابن خاتمة شاعرٌ وكاتبٌ وفقيه وزاهدٌ، عُرف عنه التزامه بالعبادة وعزوفه عن الدنيا ومباهجها ومتاعها في آخر حياته، وأصبحت صناعة الزُّهد والتقشف شيئاً مرغوباً ومحبوباً ومطلوباً لديه، وهو من الشعراء الذين شعروا بالنّدم والتحسّر والتأسف عن دنياه الزائلة، مُستفيداً من أفكاره الإسلاميّة العامّة التي تحث على فعل الطّاعات وحُسن المعاملة ومكارم الأخلاق، إضافة لعمله ووظيفته في الإفتاء الشرعي ووازعه الديني وطبيعة غرناطة الدينية، فكانت دعوته للزّهد بارزة في أغلب وصاياه وحكمه الشعرية، وسيطرة الدعوة للزّهد على جُلّ قصائده، وأثبتت وصاياه وحكمه الشعرية أنها وثيقة مهمة للإنسان، فقد أماطت اللثام عن شخصيته بخاصّة، وشخصية العربي المسلم الإنسان بعامّة، وأظهرت خوفه من الله تعالى وخشيته وتقواه وطاعته من جهة، وتعامله مع الآخر من جهة أخرى.

أما عن العلاقات التقابلية مع الآخر، فانحصرت في: علاقته بالذات الإلهية التي تلخصت في مخافته الشديدة من الله تعالى وتقواه وخشيته وطاعته والتزام أوامره واجتناب نواهيه. ولعل زهده واتجاهاته ومظاهره وبواعثه هو الذي دعاه إلى لُبْس ثوب الخوف والإقرار بمشاعر الندامة والرضا والتسليم والقَبول، ودعوته للتواضع في ظل حالة ذهوله واستغرابه من صنيع الذات البشرية على الأرض، ودعوته لتفويض الأمور لله تعالى عند النوائب ووقوع المصائب، وذمه المستمر للحرص على الحياة وتبعاتها ومستلزماتها، وكشف عن حال الدنيا الفاني وانعطافه عنها وميله على شهواتها وملذاتها، وتحذيره من ممارسة عاقبة الهوى والمجون والترف والبذخ والإسراف، ووعظه لنفسه أولاً وضراعته لله تعالى وانعكاسهما على النفس البشرية، ناهيك عن شعوره بالخوف من الموت والفناء والزوال ورحيله من الدنيا الزائلة إلى الحياة الآخرة الباقية، وتصويره لأزمة المصير الحتمي وتحطيم أحلام النفس وطموحاتها وآمالها

ورغباتها وشهواتها في ظل فجيعتها من الداخل وصعود سُلّم المنتهى وهلاك متاع دنياها وزينته.

وشكّل الخوف من السلطان شعوراً إنسانياً حثّ من خلاله على الابتعاد عنهم وقت اضطراب نفوسهم وزوال عروشهم وقصورهم وحكمهم.

وتجلّت مشاعر خوفه من النفس الشريرة التي تمارس العداء والبغضاء والشحناء ضد بني البشر وخوفه من هلاك نسيج مجتمعه الأندلسي، ودعوته لممارسة سلوك المداراة والمسايرة التربوي والمعاملة الحسنة لفئة الحُسّاد والوشاة، وتحذيره من تقلّبات أبناء عصره وزمانه وغدرهم ومكرهم.

وحذّر من إطالة اللسان وذكره عيوب النّاس، ودعا إلى حبسه ولجمه حال اغتيابه للناس وتمزيقه للحومهم والتلذذ بذكر عيوبهم وإفشاء أسرارهم؛ لأن حدة اللسان تؤدي إلى مقتل النفس وقتل شخصية الآخر والتشهير بها.

وحذّر من رغبة النفس في الاغتراب الطويل عن الوطن الذي يقتل روح الانتماء، ويجعل النفس ذليلة وخاضعة ومنكسرة نفسياً ومكانياً (الغربة النفسية والمكانية)، ومن نفثة مصدور ولوعة مفجوع دعا للحنين للأوطان ومثوى الرجال وفجيعة تحوّل النفوس في بلاد الاغتراب.

أما الجانب الفني، فقد أغرق ابن خاتمة وصاياه وحكمه الشعريّة بأفعال الأمر، وأسلوب الشرط (فعله وجوابه)، وأسلوب الاستفهام؛ لغايات فنية دلالية تجلّت في التأكيد على نصحه وإرشاده، وتثبيت مقاصده ومراميه وأفكاره وعواطفه الجياشة ورؤيته للحياة والمجتمع، وترسيخها في نفوس متلقيه ومتذوقي شعر وصاياه وحكمه الشعرية.

وأما حرارة النظم وقوتها فنجدها في خوفه من الله تعالى وخشيته وتقواه وطاعته واجتناب نواهيه وتنفيذ أوامره وزهده وشعوره بالخوف من الموت والزوال وفجيعته من الداخل؛ وذلك لأن الله تعالى غفور رحيم، دونما التقليل من شأن العلاقات التقابلية الأخرى ومضامينها واتجاهاتها.

هوامش البحث:

* ابن خاتمة: هو أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد الأنصاري المريني الغرناطي الأندلسي، أبو جعفر (ت٧٧٠هـ) وللمزيد عن: اسمه، وشخصيته، وحياته، وثقافته، ومشيخته، وتلاميذه، ومكانته، وآثاره، وعصره، وديوانه، ووفاته، ينظر: هامش رقم (١)، ص١٠، م وما بعدها من ديوانه المحقق؛ وينظر: الأنصاري، ابن خاتمه، **ديوان ابن خاتمه الأنصاري**، تحقيق: محمد رضوان الداية، (دمشق: ١٩٧٢م)، (مقدمة المحقق).

[١] الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني (ت ١٠٩٤هـ)، **الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللّغوية**، (دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٨٢م)، ج٢، ص٣٠١.

[٢] سورة القصص، الآية ٧.

[٣] الكفوي، **الكليات**: **معجم في المصطلحات والفروق اللّغوية**، ج٢، ص٣٠١.

[٤] سورة البقرة، الآية ١٥٥.

[٥] سورة البقرة، الآية ١٨٢.

[٦] سورة الرعد، الآية ١٣.

[٧] الكفوي، **الكليات**: **معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، ج٢، ص٢٠٢-٣٠٣.

[٨] المصري، جمال الدين محمد بن مكرّم بن منظور الأنصاري الأفريقي (ت٧١١هـ)، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر)، المجلد (٩)، ص٩٩-١٠١، مادة "خافَ".

[٩] سورة قريش، الآية ٤.

[١٠] سورة القصص، الآية ١٨.

[١١] سورة القصص، الآية ٢١.

[١٢] سورة القصص، الآية ٣١.

[١٣] سورة القصص، الآية ٣٣.

[١٤] سورة القصص، الآية ٣٤.

[١٥] سورة طه، الآية ٢١.

[١٦] سورة طه، الآيتان ٤٥ – ٤٦.

[١٧] سورة طه، الآيتان ٦٧ – ٦٨.

[١٨] سورة النمل، الآية ٨٧.

[١٩] البُخاري، محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ)، **صحيح البخاري**، (القاهرة: دار ابن كثير، د.ت)، كتاب "بدء الخلق"، باب صفة إبليس وجنوده، باب رقم ١١، حديث رقم ٣٢٩٢.

[٢٠] العبسي، عروة بن الورد بن زيد (ت٣٠ ق.هـ)، **ديوان عروة بن الورد**، (بيروت: دار صادر)، ص٧٤؛ وينظر، نصير، أمل طاهر، "ظاهرة الخوف في شعر الفرزدق"، **مجلة دراسات للعلوم الإنسانية والاجتماعية**، تصدر عن عمادة البحث العلمي بالجامعة الأردنية عمّان، المجلد (٣٤)، العدد (٣)، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص٦٠٤-٦٠٥.

[21] ابن حنبل، **مسند أحمد بن حنبل**، ص٣٠٩.

[22] المقدسي، أحمد بن قدامة (ت٦٢٠هـ)، **مختصر منهاج القاصدين**، (لبنان: المكتبة العصريّة، ٢٠٠٣م)، ص٣٠٦-٣٠٧.

[23] السابق نفسه، ص٣٠٦ - ٣٠٧.

[24] عبد الباقي، فؤاد، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، (بيروت: مؤسسة مناهل العِرفان، د.ت)، ص٢٤٦-٢٤٨.

[25] الجوزيه، أبو عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن القيم (ت٧٥١هـ)، **مدارج السالكين**، (دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤م)، ج١، ص٣١٩.

[26] سورة فاطر، الآية ٢٨.

[27] سورة المائدة، الآية ٤٤.

[28] سورة الأحزاب، الآية ٣٩.

[29] سورة البيّنة، الآية ٨.

[30] عبد الباقي، فؤاد، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، ص٢٤٦-٢٤٨.

[31] ابن القيّم الجوزيّة، **مدارج السالكين**، ج١، ص٣١٩.

[32] سورة المعارج، الآية ١٩.

[33] ابن حبّان، محمد بن أحمد بن حاتم التميمي البستي (ت٣٥٤هـ)، **صحيح ابن حبّان**، ط٢، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣م)،ج٨، ص٤٢، رقم الحديث (٣٢٥٠).

[34] الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت٥٠٥هـ)، **إحياء علوم الدّين**، (القاهرة: دار الشعب، د. ت)، ج٤، ص١٥٥.

[35] القاضي، أبو الحسن عبد العزيز بن محمد الجُرجاني (ت٣٩٢هـ)، **كتاب التعريفات**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨م)، ص١٠١.

[36] الغزالي، **إحياء علوم الدّين**، ج٤، ص١٥٥؛ وينظر، المقدسي، **مُختصر منهاج القاصدين**، ص٣٠٦-٣٠٧؛ وابن القيم الجوزية، **مدارج السالكين**، ج١،ص٣١٩.

[37] ابن القيم الجوزية، **مدارج السالكين**، ج١، ص٣١٩.

[38] المكي، محمد بن علي (ت٣٨٦هـ)، **قوت القلوب في مُعاملة المحبوب**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م)، ج١، ص٣٩٩.

[39] المقدسي، **مختصر منهاج القاصدين**، ص٣٠٦-٣٠٧.

[40] الشويات، آمنة خليل، **الخوف من منظور تربوي إسلامي**، رسالة ماجستير (مخطوطة)، مكتبة جامعة اليرموك، إربد-الأردن، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص٢٣.

[٤١] سورة الرحمن، الآية ٤٦.

[٤٢] المقدسي، **مختصر منهاج القاصدين**، ص٣٠٦-٣٠٧.

[٤٣] طبانة، بدوي، **قضايا النقد الأدبي**، (القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧١م)، ص١٨.

[٤٤] ابن خاتمة، **ديوانه**، مقدّمة التحقيق، ص١٠م.

[٤٥] الرّكابي، جودت، **في الأدب الأندلسي**، (القاهرة: دار المعارف، مكتبة الدراسات الأدبية (٢٢)، ١٩٦٦م)، ص١١٨.

[٤٦] ابن خاتمة، **ديوانه**، مقدّمة التحقيق، ص١٨م.

[٤٧] سورة النّور، الآية ٣٥.

[٤٨] سورة الأعلى، الآيتان ١-٢.

[٤٩] سورة البقرة، الآية ٣٠.

[٥٠] سورة الطلاق، الآيتان ٢-٣؛ وتنظر: الآيات التي تحث على التقوى، في سورة الحشر، آية ١٨.

[٥١] سورة البقرة، الآية ١٩٧.

[٥٢] سورة التوبة، الآية ١٠٩.

[٥٣] سورة العلق، الآيات ٩-١٢.

[٥٤] سورة الذّاريات، الآية ١٥.

[٥٥] سورة البقرة، الآية ١٨٩.

[٥٦] سورة البقرة، الآية ١٩٤.

[٥٧] سورة البقرة،الآية ٤٨، الآية ١٢٣.

[٥٨] سورة البقرة، الآية ١٩٦.

[٥٩] ابن خاتمة، **ديوانه**، ص١٢٧.

[٦٠] بهجت، مُنجد مصطفى، **الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة** (٩٢-٨٩٧هـ)، ط٢، (دار الياقوت طباعة ونشر وتوزيع، ٢٠٠١م)، ص٣٣-٣٤.

[٦١] العاني، محمد شهاب، **أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي منذ الفتح إلى سقوط الخلافة** (٩٢-٤٢٢هـ)، ط١، (بغداد: دار الشؤون الثقافية "آفاق عربية"، ٢٠٠٢م)، ص٨.

[٦٢] سورة الأعراف، الآية ٢٦.

[٦٣] حاوي، إيليا، **في النقد والأدب** (١)، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٩م)، ص٩٠.

[٦٤] ابن خاتمة، **ديوانه**، ص١٣٦.

[٦٥] الغزالي، حامد محمد بن محمد (ت٥٠٥هـ)، **مُكاشفة القلوب المُقرِّب إلى حضرة علاّم الغُيوب: مختصر من المكاشفة الكبرى**، تقديم وتعريف: الشيخ محمد رشيد القبّاني، ط٢، (دار إحياء العلوم، ١٩٨٥م)، ص٢٠٩.

[٦٦] سورة يونس، الآية ٢٤.

[٦٧] ابن خاتمة، **ديوانه**، ص١٣٦.

[٦٨] الكردي، عمار، **الإنسان والرزق**، ط١، (دار المعرفة، مطبعة الصباح، ١٩٩٥م)، ص٦٥.

[٦٩] سورة طه، الآية ١٣١.

[٧٠] الغزالي، **مُكاشفة القلوب المقرّب إلى حضرة عَلاّم الغيوب**، ص١٦٩.

[٧١] السابق نفسه، ص١٦٩.

[٧٢] ابن خاتمة، **ديوانه**، ص١٢٧.

[٧٣] النَوش، حسن أحمد، **التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي**، ط١، (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٢م)، ص٤٢٧.

[٧٤] الكردي، **الإنسان والرزق**، ص ٦٥، ص٨١؛ وينظر الغزالي، **مكاشفة القلوب المقرّب إلى حضرة علاّم الغيوب**، ص١٧٠.

[٧٥] سورة الإسراء، الآية ٣٧.

[٧٦] الرّاوي، مصعب، **الشعر العربي قبل الإسلام بين الانتماء القبليّ والحسّ القومي**، ط١، (١٩٨٩م)، ص٢٣.

[٧٧] السعيد، محمد مجيد، **الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس**، ط٣، (عمان: دار الراية للنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ)، ص٢٩٤.

[٧٨] ابن خاتمة، **ديوانه**، ص١٢٨.

[٧٩] الغزالي، **مُكاشفة القلوب المقرّب إلى حضرة علاّم الغيوب**، ص٢٨٤ وما بعدها.

[٨٠] شلبي، سعد إسماعيل، **البيئة الأندلسيّة وأثرها في الشعر: عصر ملوك الطوائف**، (القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، د.ت)، ص٥٠٢.

[٨١] ابن خاتمة، **ديوانه**، ص١٢٨.

[٨٢] الغزالي، **مُكاشفة القلوب المقَرَّب إلى حضرة علاّم الغُيُوب**، ص٢٢٢.

[٨٣] سورة البقرة، الآية ١٨٦.

[٨٤] شلبي، **البيئة الأندلسيّة وأثرها في الشعر: عصر ملوك الطوائف**، ص٥١٠.

[٨٥] ابن خاتمة، **ديوانه**، ص١٢٨.

[٨٦] الغزالي، **مُكاشفة القلوب المُقَرَّب إلى حضرة علاّم الغيوب**، ص١٧١.

[٨٧] سورة الطلاق، الآية ٣.

[٨٨] سورة الذاريات، الآيتان ٥٦-٥٧.

[٨٩] ابن خاتمة، **ديوانه**، ص١٣٠؛ وينظر للمزيد من الشواهد الشعرية ص١٣٠-١٣١.

[٩٠] المتنبي، أحمد بن الحسين أبو الطيب (ت٣٥٤هـ)، **شرح ديوان المتنبي**، وضعه: عبد الرحمن البرقوقي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٦م)،ج١، ص٢٥٥؛ وينظر في الحاشية رقم (١) ذكر الواضع والشارح أبياتاً شعرية تحتوي مضمون هذا البيت، ص٢٥٥-٢٥٦.

[٩١] ابن الأثير، ضياء الدّين (ت٦٣٧هـ)، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، (القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ١٩٦٢م)، ج٣، ص٢٠٣.

[٩٢] عاصي، ميشال، **الشعر والبيئة في الأندلس**، ط١، (بيروت: منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٠م)، ص٨.

[٩٣] قال المتنبي:

مَا كُلّ ما يَتمنى المرْءُ يَدركهُ   تجري الرّياح بما لا تَشْتهي السّفنُ

[٩٤] الغزالي، **مكاشفة القلوب المقرّب إلى حضرة علاّم الغُيُوب**، ص١٤٤؛ وينظر: ص١٥٤.

[٩٥] ابن خاتمة، **ديوانه**، ص١٣١.

[٩٦] السابق نفسه، ص١٢٩.

[٩٧] طرفة، علي طلال، **الصبر في الإسلام: رؤية تحليلية شاملة**، ترجمة: حامد العطية، ط١، (بيروت: مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ١٩٩٨م)، ص١٧.

[٩٨] سورة آل عمران، الآية ١٤٦.

[٩٩] الغزالي، **مكاشفة القلوب المُقَرّب إلى حضرة علاّم الغُيُوب**، ص٢٤.

[١٠٠] الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري (ت٥١٨هـ)، **مَجمع الأمثال**، حققه وفصّله وضبط إعرابه وعلّق حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، (بيروت، ودمشق: دار النصر، د.ت)، ج١، ص٢٩٤.

[١٠١] ينظر: الدراسات العربية حول أسلوب التجريد، الغانمي، سعيد، **أقنعة النّصّ**، ط١، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العّامة)، ص٤٧، وما بعدها؛ وينظر: ربابعة، موسى، "ظاهرة التجريد في نماذج من الشعر الجاهلي"، **مجلة دراسات**، تصدر عن عمادة البحث العلمي، الجامعة الأردنية، عمان، المجلد (٢٢) أ، العدد (٢)، نيسان ١٩٩٥م، ص٧٣٥ وما بعدها؛ وينظر: القرعان، فايز عارف، "أسلوب التجريد ودلالاته في شعر كُثير عزّة" **مجلة دراسات**، تصدر عن عمادة البحث العلمي، الجامعة الأردنية، عمان، المجلد (٣٤)، العدد (٣)، شوال ١٤٢٨هـ/ تشرين الأول ٢٠٠٧م، ص٤٢٥.

[١٠٢] ماي، رولو، **البحث عن الذات: دراسة نفسية تحليلية**، ترجمة وتعليق: عبد علي الجسماني، ط١، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٣م)، ص٩٦.

[١٠٣] القرعان، "أسلوب التجريد ودلالاته في شعر كثير عزّة"، ص٤٢٥.

[١٠٤] ابن خلدون، عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ)، **المقدمة**، ط ٤، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت)، ص٥٣٨.

[١٠٥] العكش، إبراهيم علي، **التربية والتعليم في الأندلس**، (عمان: دار الفيحاء، ١٩٨٦م)، ص١٦٦.

[١٠٦] ابن خاتمة، **ديوانه**، ص١٣٨-١٣٩.

[١٠٧] ابن ثقفان، عبد الله بن علي، "ظاهرة الانتماء في الأدب الأندلسي"، **مجلة دراسات أندلسيّة**، العدد (١١)، ١٩٩٤م، ص٥١.

[١٠٨] البيومي، محمد رجب، "النقد الأدبي من وجهة إسلاميّة"، **مجلة الأدب الإسلامي**، المجلد (١)، العدد (١)، ١٩٩٣م، ص٧.

[١٠٩] سورة الأعراف، الآيتان ٥٥-٥٦.

[١١٠] ابن خاتمة، **ديوانه**، ص ١٣٩.

[١١١] النَوش، **التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي**، ص٤٢٧.

[١١٢] سورة آل عمران، الآية ١٨٥.

[١١٣] سورة الملك، الآيتان ١-٢.

[١١٤] الغزالي، **مُكاشفة القلوب المقرّب إلى حضرة علاّم الغُيوب**، ص٢٢٥.

[١١٥] سورة النجم، الآية٤٢.

[١١٦] بهجت، مُنجد مصطفى، **الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين**، ط١، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م)، ص٤٨١.

[١١٧] فرّق تقي الدين بن حجة الحموي (ت٨٣٧هـ) بين مفهومي: الاقتباس والتضمين، فقال: "الاقتباس يكون من القرآن والحديث فحسب، والتضمين من الشعر وغيره من الكلام"، ينظر: كتابه، **خزانة الأدب وغاية الأرب**، (القاهرة: المطبعة الخيريّة، ١٣٠٤هـ)، ص٤٤٣.

[١١٨] النَوش، **التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي**، ص٤٢٨.

[١١٩] العاني، **أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي منذ الفتح إلى سقوط الخلافة** (٩٢-٤٢٢هـ)، ص١٤.

[١٢٠] ابن خاتمة ، **ديوانه**، ص١٢٩.

[١٢١] النَوش، **التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي**، ص٤٢٧.

[١٢٢] السابق نفسه.

[١٢٣] ابن خاتمة، **ديوانه**، ص١٣١.

[١٢٤] سورة لقمان، الآية ٣٤.

[١٢٥] ابن خاتمة، **ديوانه**، ص١٣١.

[١٢٦] سورة البقرة، الآية ١٧٧.

[١٢٧] سورة البقرة، الآية ٢١٥.

[١٢٨] ابن خاتمة، **ديوانه**، ص١٣١.

[١٢٩] السابق نفسه، ص١٣٢-١٣٣.

[١٣٠] المتنبي، **شرح ديوان المتنبي**، ج١، ص ٤.

[١٣١] بابللي، محمود محمد، **الإحسان خُلق إسلامي**، ط١، (جدة، ومكة، دار المنارة للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م)، ص٧.

[١٣٢] بهجت، **الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة** (٤٢-٨٩٧هـ)، ص٣٩.

[١٣٣] بابلّلي، **الإحسان خلق إسلامي**، ص٧٤.

[١٣٤] سورة الشورى، الآية ٤٠.

[١٣٥] سورة فصّلت، الآية ٣٤.

[١٣٦] ابن خاتمة، **ديوانه**، ص١٢٩.

[١٣٧] الميداني، **مجمع الأمثال**، ج١، ص٢٨٩.

[١٣٨] سورة النّحل، الآيات ٣٠-٣٢.

[١٣٩] بابلّلي، **الإحسان خُلق إسلامي**، ص١٨.

[١٤٠] سورة فصلت، الآية ٣٣.

[١٤١] سورة الأحقاف، الآية ١٥.

[١٤٢] بابلّلي، **الإحسان خُلق إسلامي**، ص٧٣.

[١٤٣] سورة النحل، الآية ٩٧.

[١٤٤] ابن خاتمة، **ديوانه**، ص١٣٦.

[١٤٥] سورة البقرة، الآية ٢٢٤.

[١٤٦] ابن خاتمة، **ديوانه**، ص١٣٤.

[١٤٧] السابق نفسه، ص ١٣٤- ١٣٥؛ وينظر نفس الفكرة، ص١٣٤.

[١٤٨] ابن خاتمة، **ديوانه**، ص ١٣٢.

[١٤٩] السابق نفسه، ص١٣٣.

[١٥٠] ابن المعتز، عبد الله (ت٢٩٦هـ)، **ديوانه**، (بيروت: دار صادر)، ص٥٣.

[١٥١] الميداني، **مجمع الأمثال**، ج١، ص٢١٥.

[١٥٢] السابق نفسه، ص٣٠.

[١٥٣] ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، ج١، ص٩٦.

[١٥٤] ابن خاتمة، **ديوانه**، ص١٣٣-١٣٤.

[١٥٥] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م)، **الحنين إلى الأوطان**، تحقيق: الشيخ طاهر الجزائري، ط١، (القاهرة، ١٣٣٣هـ)، ص٩.

[١٥٦] سورة البقرة، الآية ٢٤٦.

[١٥٧] عيسى، فوزي سعد، **في الأدب الأندلسي**، ط١، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، ٢٠٠٩م)، ص١٠٣؛ ينظر: طَحْطَحَ، فاطمة، **الغربة والحنين**، ط١، (الدار البيضاء: منشورات جامعة الرباط كلية الآداب، مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٣م)، ص٣١١-٣١٢.

[١٥٨] عبد النور، جبّور، **المعجم الأدبي**، ط١، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩م)، ص١٨٦.

[١٥٩] ابن خاتمة، **ديوانه**، ص١٣٧.

[١٦٠] عيسى، **في الأدب الأندلسي**، ص١٠٣.

[١٦١] ابن خاتمة، **ديوانه**، ص١٣٧.

[١٦٢] القرطاجني، حازم، محمد بن الحسن الأوسي (ت٦٨٤هـ)، **منهاج البلغاء في شرح الأدباء**، تحقيق: محمد الحبيب بلخوجة، ط٢، (بيروت: ١٩٨١م)، ص٢١-٢٢.